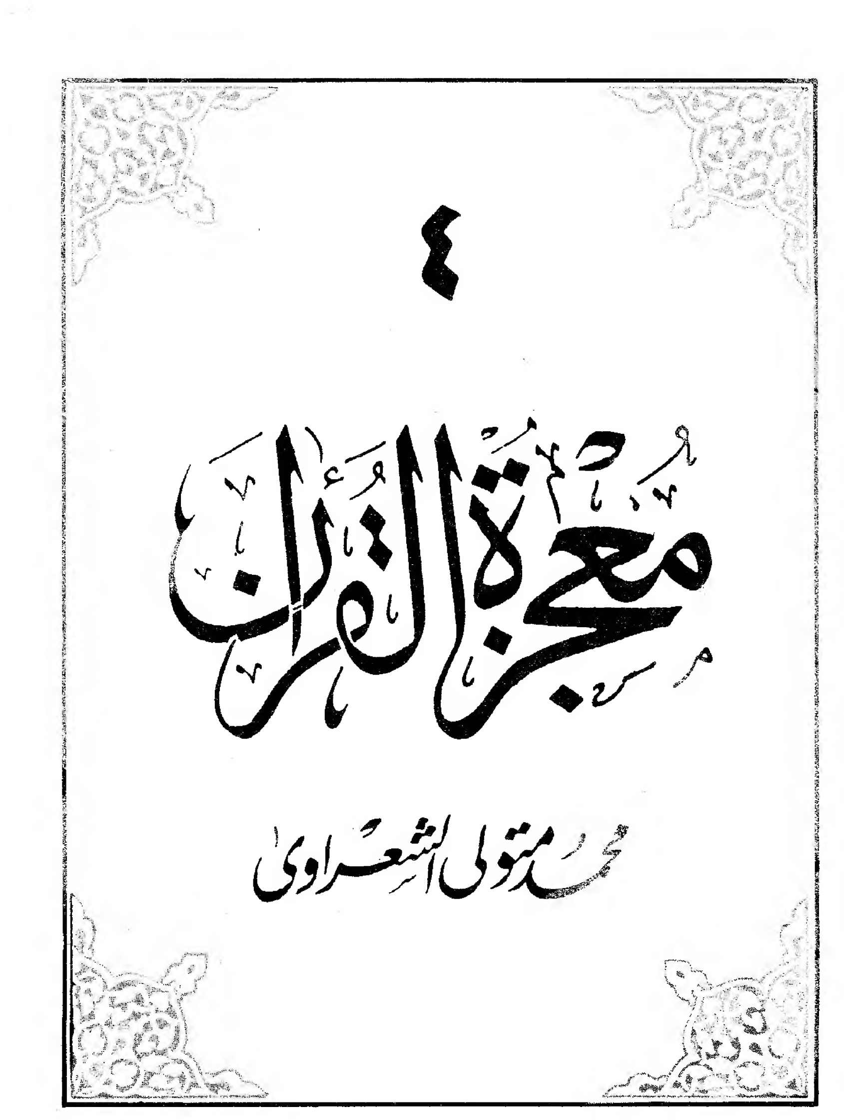
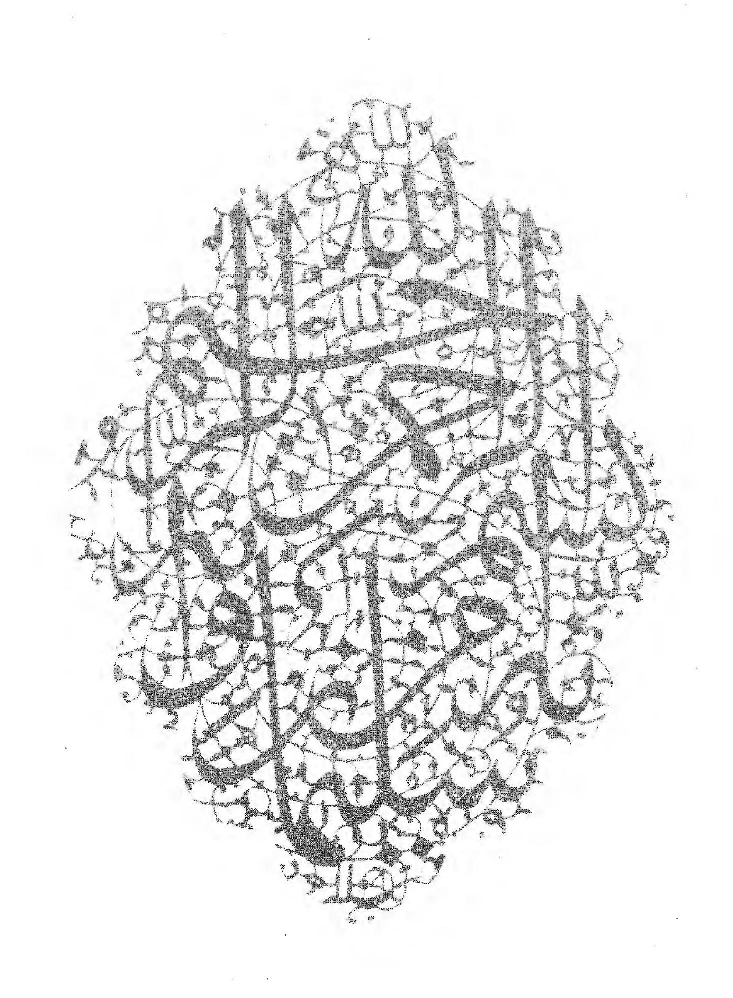


٤
معجزة القرآن
محمد متولي الشعراوي



ادارة الكتب والمكتبات

الإخراج الفنى : أشـرف حسـين





الفصل الأول

عِنْدَمَا يَتَوَقَّفُ الْكَوْنُ!

عندما يتوقف الكون !

فى كثير من الأحيان يلفتنا القرآن إلى أشياء قد تغيب عن عقولنا . . أحيانا بسبب زحمة الحياة . . وأحيانا بسبب التعود والعادة . . وأحيانا بسبب العجلة التى يريد بها الإنسان أن يقضى أموره . . وقصر النظر الذى يجعله بعيدا عن الصبر . . قليل التفكير فى الحكمة فى كثير من الأمور .

ذلك أن الله سبحانه وتعالى وضع فى كل شىء حكمة . . وسواء غابت عنا أو عرفناها . . فهى موجودة،والله المبدع قد خلق فى الكون أسرارا تتكشف كل يوم . . لتذهلنا بعظمة الخالق وحكمته .

أن سورة التكوير . . تبدأ بشرح الأهوال التى تتعلق بقيام الساعة . . أو بيوم القيامة . . وفى كل آية من الآيات الأثنتى عشرة الأولى . . كلمة إذا . . فتبدأ السورة . .

اثنتا عشرة آية تبدأ بحرف إذا . . وهو حرف شرط . . ثم بعد ذلك يأتى الجواب المراد وهو :

« علمت نفس ما أحضرت »

وفى سورة الانفطار أيضا . . إذا يقول سبحانه :

﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝ ﴾

سورة الانفطار

أى أن هذه كلها مقدمات عندما تحدث تعلم كل نفس ما قدمته وما أخرته . . وهكذا نجد أن هذه الآيات المتعددة . . كلها علامة على شىء واحد وهو الآخرة . . وعلم الإنسان بما قدم وأخر .

على أننا نلاحظ أن هذه الآيات تصور انقلابا هائلا فى الوجود . . انقلابا لم تعتده النفس البشرية . . فالنفس اعتادت أن ترى الشمس تؤدى دورها كل يوم باستكانة . . واعتادت على النجوم فى نظامها الرتيب . . واعتادت على الجبال راسية فى مكانها ! . . فإذا تغير كل هذا وهو من نظام الكون الأساسى . . ولم تعد

الشمس تؤدى مهمتها .. ولا النجوم تؤدى مهمتها .. ولا البحار تؤدى مهمتها .. ولا الجبال تؤدى مهمتها .. إلى آخر الآيات .. فكأننا خرجنا تماما عن صورة الكون المألوف .. إلى صورة أخرى مغايرة تماما .

والإنسان لا يتنبه للخطر .. ولا يحس بالنعمة إلا ساعة تخرج حياته عن المألوف فيه .. فأنت مادمت تتمتع بالصحة .. لا تشعر إنك تتمتع بشيء .. بل تأخذ هذه النعمة على أساس اعتيادى .. وأن هذا هو المألوف .. والذى يجب أن يحدث .. فإذا اعتلت صحتك .. عرفت معنى النعمة .. وقدرت ما حباك الله به وما أعطاه الله لك .. دون أن تتنبه أو تشعر .. فأنت ترى بعينيك .. ولكنك لا تحس بنعمة البصر إلا إذا حدث شيء .. أو مرض أخرج هذا البصر عن مألوف عمله .. وأنت تسمع بأذنيك .. ولكنك لا تحس بنعمة السمع إلا إذا اختل هذا الجزء من الحواس .. وهكذا كل شيء فى حياتك .. كونه يمشى منسجما مع وظيفته التى خلق لها .. يفقدك الشعور به .. فإذا اختل .. بدأت تتنبه إلى هذه النعمة .. وتحس بما حباك الله به ..

كم من إنسان يأكل بأسنانه عشرات المرات .. كل يوم وهو لا يشكر الله .. فإذا ما أصيب ضرس واحد من هذه الأسنان .. بدأ يشعر بآلام هذا الضرس وبأهميته .. وكم من إنسان يتخم نفسه بالطعام .. دون أن يحس بنعمة الله عليه .. فى أنه وقاه شر ما أفرط فيه .. فإذا ما أصيبت معدته شعر بأن له معدة .. وأنها نعمة كبيرة .. وأنه يجب أن يحافظ عليها .. إلى آخر ما نعرفه فى كل أعضاء الجسم .. الذى هو سليم منها يجب أن نشكر الله سبحانه وتعالى على أنه عافاه لنا .. وجعله يؤدى عمله المخلوق له أداء كاملا .. فى هذه الحالة فإننا لا نحس بالنعمة .. ولا نقدم الشكر .. فإذا خرج عضو من أعضاء الجسد عن مهمته المألوفة وأصابه عطب .. ذكرنا نعمة الله فيه .

القرب من الله

والإنسان فى حياته يكون أقرب إلى الله حين يمرض .. ذلك أنه يحس بنعمة

الله . . وكلمة آه التى يقولها الإنسان وهو يتألم . . كلمة فطرية . . يفزع بها الإنسان إلى خالقه لأنه هو الذى وهب . . وهو الذى يستطيع أن يشفى . . فإذا ما استرد الإنسان صحته . . استرد معها افتراءه . . ونسى النعمة . . لأن الإنسان يفقد الأثر بالنعمة . . مادامت هى موجودة . . وهى ممنوحة له من الله . . دون أن يتعب هو . . أويجهد . . ولذلك لا يشعر بقيمة المطر . . إلا من تنعدم عندهم الأمطار . . ولا يشعر الإنسان بقيمة الرزق . . إلا عندما يمر بأزمة يحتاج فيها إلى المال . . وفى كل الأزمات وخلال كل الفترات التى تخرج فيها الحياة عن رتابتها . . ويصبح ما اعتقده الانسان أنه حق مطلق له قد أخذه هو لنفسه . . يصبح هناك ما يذكرنا جميعا بالمنعم . . وحينئذ ترتفع الأيدى إلى السماء . . ويتجه الإنسان إلى الله . . ذلك أن خروج النعمة عن مألوف عطائها يذكرنا بفضل الله علينا . . ذلك الفضل الذى ننساه دائما حين يعطينا الله من نعمه . . ويغدق علينا من فضله .

إذن فقيمة الأحداث التى تصيب الإنسان فى نفسه . . أو فيما تحيط به من نعم . . إنما هى تذكرنا بالخالق . . بالله سبحانه وتعالى الذى أعطانا هذه النعمة . . ولولا تلك الأحداث والأزمات لمضينا فى حياتنا . . أو لمضى الكثير منا فى حياته وهو لا يحس بنعم الله عليه . .

ولكن بعض الناس يحاول أن يأخذ على نظام الكون . . هذه الأشياء المذكرة بالنعمة . . فمثلا تأتى إلى قرية تعدادها عشرة آلاف شخص . . تجد خمسة من المكفوفين . . وإنسانا فقد احدى عينيه . . وآخر فقد قدمه . . أو لا يستطيع أن يحركها . . إلى آخر هذا . . شواذ فى الوجود . . وفى الخلق . . ولكن هم قلة القليل . . لتذكرنا بأن الله سبحانه وتعالى قد خلق لنا هذا الوجود . . وأن هذا الوجود ليس وجودا آليا . . أو ميكانيكيا . . وأننى لم أحصل على حق . . هذا الجسد السليم بذاتيته . . ولم أحقق لنفسى . . بل هو نعمة من الله سبحانه وتعالى . . فالمكونات الفردية تؤكد لنا أن الخالق مهيمن على كل شيء . . وأنه إذا

كان واحد منا لم يشذ فى صورته . . فتلك نعمة من الله سبحانه وتعالى . . وبعض الناس يقول فى محاولة لتبرير دقة صنع الإنسان . . إن العقل الالكترونى فى حساباته مثلا لا يخطىء . . بينما العقل البشرى يخطىء . . ونحن نقول لهم . . إن كل الآلات بما فى ذلك العقول الالكترونية لا تخطىء لأنه ليس لها اختيار . . فهى تفعل ما تؤمر به . . ولكن العقل الإنسانى يخطىء . . لأن الله أعطاه ميزة الاختيار . . وهى ميزة أعطته بدائل يستطيع أن يلجأ إليها . . فإذا سألته سؤالا يستطيع أن يتجنب الحقيقة . . ويكذب . . كما يستطيع أن يقول الصدق .

وكون العقل البشرى عنده البدائل التى يختار منها . . دليل على قدرته . . لأنه لو لم تكن هذه البدائل ما كان يمكن أن يخطىء . . بل كان لابد أن يمضى فى حياته آليا . . ولكن ميزة الخطأ أو الصواب هى التى وضعت أمامه القدرات الهائلة للتقدم . . أو هى ميزة الحياة . . ذلك أن العقل استطاع بتحركه وقدراته غير الآلية . . أن يصل إلى ما كشفه الله له فى الأرض من علم وتقدم . . ولو لم يكن يملك هذه القدرات غير الآلية . . لما أمكنه أن يصل إلى ذلك . . فالعقل الالكترونى مثلا الذى لا يخطىء . . لايستطيع أن يخترع عقلا الكترونيا أكثر تقدما وتطورا منه . . ولكن العقل البشرى الذى يملك الاختيار . . وهو بالتالى يملك ميزة الفكر فى أن يقبل أو لا يقبل . . وميزة الابتكار فى أن يميز بين البدائل . . كل هذه الميزات التى منحها الله سبحانه وتعالى للعقل البشرى قائمة على قدرة هذا العقل . . بتحرك غير آلى . . أى أنه قد لا يكون فى دقة الآلة التى يخترعها . . والتى قد تبهر الإنسان . . ولكن خروج هذا العقل عن آلية التفكير قد أعطاه ميزة الحضارة كلها والتقدم . .

عقل يخطىء ويصيب

والله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى هذا كله . . وإلى أنه وراء كل شىء فى هذا الكون إله قائم عليه . . وأن هذا الإله خلق للإنسان عقلا ربما يقل فى قدرته

الميكانيكية عن كثير من الآلات الصماء . . التى لا تخطىء . . ولكن كونه قد خلق بحرية فكر . . وقدرات تحمل الصواب والخطأ . . قد استطاع بما كشفه الله له أن يصل إلى هذه المدنية . . فالعقل الالكترونى الذى لا يخطىء ، هو أدنى مرتبة من العقل البشرى . . لماذا ؟ . . لنحس بعظمة الله فى مقاييس الكون . . وحكمته فى خلق العقل البشرى . . لفتة من الله سبحانه وتعالى بأن ميكانيكية العمل . . مع عدم حرية الاختيار هو أدنى مرتبة من عقل حر مفكر . . وأن العقل الآدمى الذى يصيب ويخطىء . . قد منحه الله من الميزات والقدرة أكثر من ذلك العقل الالكترونى الذى لا يخطىء . . فالعقل البشرى لا تقيده قيود . . تجعله قاصرا عن أن يقوم بشىء واحد . . بينما كل الآلات التى قد تذهلك طريقة تقدمها العلمى . . لا تملك أهم شىء فى الدنيا وهو الفكر . . وكما أننا إذا درسنا العقول الالكترونية مثلا . . لأدركنا ما أنعم الله به علينا من نعمة العقل الإنسانى . . والفكر الإنسانى . . فالإنسان حين يرى إنسانا أعمى يتذكر فضل الله عليه فى أنه قد أعطاه النظر . . وإذا رأى إنسانا أعرج . . أحس بنعمة رجليه .

إذن فالأشياء الموجودة فى الكون وسائل ايضاح لنعم الله سبحانه وتعالى . . وفيها خروج عن المألوف بحيث يهز الإنسان من داخله .

ولكن قد يسأل سائل . . ما ذنب هؤلاء فى أن يكونوا وسيلة ايضاح لغيرهم . . ونحن نقول أن الله سبحانه وتعالى رغم أنه جعل ذلك فى قلة من البشر لا تكاد تذكر بالنسبة لعدد البشرية الهائل . . إلا أنه عوض هؤلاء عما فقدوه . . ولابد أن لكل واحد فيهم ميزة عن غيره من الخلق تعوضه عما فقد .

الميزة الأولى التى يشتركون فيها جميعا . . هى أنهم ينالون من عطف الناس . . ومعاونتهم ما لا يناله غيرهم . . أما الميزة الثانية . . فإن لكل واحد منهم نبوغا لا يتوافر لغيره . . وناحية يتميز بها فى عبقرية من نوع آخر . . ولعلنا

نرى أمثلة كثيرة لذلك . . فأكثر الناس قدرة على حفظ ما يسمعون هم الذين فقدوا أبصارهم . . وفى كثير من الأحيان وصل أولئك المصابون بعاهات مثل شلل الأطفال وغيره إلى مناصب رؤساء دول . . وشيخ الاقتصاد الذى أنقذ ألمانيا بعد الحرب كانت رجلاه قصيرتين بشكل يلفت النظر .

إذن فالله سبحانه وتعالى عندما وضع مثل هذا الشذوذ فى الكون . . وضعه بنسبة ضئيلة جدا . . لتلفت البشرية كلها إلى نعمة الله . . ثم بعد ذلك يأتى عون الله فيعوضه من الخير والنبوغ . . والعطف الإنسانى ما ييسر له كثيرا من أمور حياته . . ويمنحه فرصا متميزة .

وإذا ناقشنا ما يقوله بعض الذين لا يؤمنون بالدين . . من أن الله سبحانه وتعالى ميز الإنسان بالفكر . . ثم سلب الفكر من بعض الناس . . فأصبحوا مجانين . . نقول أن لهذا حكمة . . كما أن لكل شىء فى هذا الكون حكمة فى الخروج عن المألوف .

وننسى النعمة . . والمنعم

على أننا قبل أن ننتقل لنناقش حالة أولئك الذين سلبوا نعمة الفكر . . أو نعمة العقل التى أعطاها الله للبشر . . فإننا نحب أن نتوقف وقفة أخرى . . عند مسألة قدرات العقل البشرى والعقول الالكترونية . . ذلك أن هناك نقطة لابد من مناقشتها . . وهى أن العلم كشف من الله سبحانه وتعالى للعقل البشرى . . وليس ذاتية يحققها العقل البشرى من نفسه . . فالله سبحانه وتعالى يكشف للعقل البشرى جيلا بعد جيل ما هو فوق قدرات هذا العقل . . لنعرف جميعا أن العلم هو من عند الله . . وأنه لا علم لنا . . إلا ما علمنا الله سبحانه وتعالى .

فإذا قال إنسان كيف يخترع العقل الإنسانى الذى يخطىء ويصيب ما هو أكثر

منه دقة . . وهو العقل الالكترونى فى عدد من العمليات الحسابية . . بل كيف يمكن أن يخترع العقل الإنسانى ما هو أقوى من قدراته فى مجالات كثيرة من العلم . . الحقيقة أن هذه آية من آيات الله سبحانه وتعالى . لتدلنا على أن هذا الكشف هو من الله . . وأنه هو الذى يسره للعقل البشرى . . وجعله فى طاقته . . كما يسر أشياء كثيرة لم تكن فى قدرة العقل البشرى . . وأدخلها فى قدراته . . كالطيران . . والتليفزيون . . واللاسلكى . . والكهرباء . . كل هذه الأشياء كانت موجودة فى الكون منذ بدء الخلق . . ثم أدخلها الله سبحانه وتعالى فى قدرة العقل البشرى . . فأصبحت من استخدامات الإنسان فى الحياة اليومية . . ولكن الله لم يدخل هذه القوة فى قدرة العقل البشرى منذ بداية الخلق . . حتى لا يقول الناس إن هذه من القدرات الذاتية التى يستطيع العقل البشرى التحكم فيها . . بل أدخلها بعد فترة من الوقت لتكون آية على أن الكشف من الله للعقل .

على أن بعض الناس يتساءل : إذا كانت كبرى نعم الله على الإنسان هى العقل . . يرث الحضارة . . ويعطيه الله العلم والمعرفة . . فما ذنب هؤلاء الناس الذين ولدوا فاقدى العقول . . ونعود إلى نفس ما تحدثنا عنه . . من أن الله سبحانه وتعالى وضع فى الكون نماذج قليلة جدا . . لتذكر البشر بنعمه . . ولكنه فى نفس الوقت أعطاهم من الميزات ما يعوضهم عما فقدوه . . فإذا كان عدد قليل من الناس قد فقد عقله . . فقد رفع الله سبحانه وتعالى عنه التكليف فى الدنيا والآخرة . . بحيث لا يحاسب . . فهو يقول ما يشاء فى الدنيا ولا يحاسبه المجتمع . . وهو فى الآخرة لا يحاسبه الله سبحانه وتعالى . . وفى هذا تعويض كبير عن العقل . . فى نفس الوقت الذى جعل فيه هؤلاء الناس تذكرة دائمة للإنسان بنعمة العقل . . وبأنه ليس هو الذى خلق عقله . . ولا هو الذى أورثه الحضارة البشرية . . ولكن الله هو الذى خلق . . وهو الذى أورث .

إذن فعدل السماء مطلق . . فيما أعطاه الله للإنسان . . ولكل واحد فينا

ـ رغم كل ما يمر به ـ نقطة يتميز بها عن غيره من البشر . . تعوضه عما يعتقد أنه فقده . . فالذى لا يملك المال يملك البركة . . فيبارك الله له فى القليل . . والذى لا يملك المنصب . . يملك الصحة التى تعوضه عن هذا كله . . أو يملك البركة فى أولاده . . فييسر الله له سبل العلم والحياة والرزق لهم . . والذى لا يملك هذا كله يملك الستر . . ونعمة القناعة . . إلى آخر نعم الله التى لا تعد ولا تحصى . . والإنسان لو نظر إلى نعم الله التى أعطاها له . . لعرف أن ما أعطاه أكبر كثيرا مما منع . . وفى بعض الأحيان تأتى لحظات من الحياة يكشف فيها الإنسان أن نعم الدنيا كلها التى اعتقد أن الله سبحانه وتعالى قد حرمه منها لا تساوى نعمة واحدة مما وهبه الله . . فكم من مريض يتمنى أن يأخذ الله كل نعم الدنيا ويعطيه صحته . . أو يعطيه راحة البال . . أو يزيل عنه الشقاء .

فلنتذكر . . خالق النعمة

إذن فالأحداث إذا خرجت عن طبيعتها حول الإنسان . . فهى تذكره بالخالق الذى أعطاه هذه النعم . . وقد يغره الوجود فى نظامه العام . . فيعتقد أنه ليس وراء هذا الوجود خالق ومدبر . . فيأتى الله سبحانه وتعالى بأولئك الذين يخرجون عن النظام العام . . ليذكر الناس بأن هذا الكون هو من خلق الله . . وأن كل شىء فيه يمضى بأمر الله . . وكل شىء يمكن أن يخرج عن مهمته . . ومن رحمة الله أنه يخرج بنسبة تافهة لا تذكر . . إنما هو تذكير للقدرة . . وبأن هذا الكون ليس موجودا وجودا تلقائيا . . وليس خاضعا لأحد أبدا إلا لخالقه . . وتأتى الأشياء لتلفتنا إلى الحق سبحانه وتعالى . .

فالشمس الرتيبة التى تراها كل يوم تؤدى مهمتها فى استقرار ودوام . . حتى تجعلك تحس خطأ انها دائمة وخالدة . . سيجىء يوم تتغير فيه :

﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ ﴾

سورة التكوير

فترى انقلابا هائلا فى الكون يؤكد أن هذا الكون كله متغير . . وأن بقاءه ودوامه على هذه الحالة هما تنفيذ لمشيئة الله . . وعندما تأتى المشيئة لتغيير الكون . . يذهب الاستمرار والاستقرار فى كل شيء . . ومن هنا فإنك يجب ألا تتعلق بعظمة الخلق مهما بلغت . . ومهما بدا لك انها مستقرة . . وإنما تتعلق بعظمة الخالق الذى هو وحده الباقى . . فكل هذا المعتاد . . والمألوف الذى حولك فى الكون من شمس ونجوم وبحار . . وجبال سيتغير . . لماذا ؟ لأنه لا يستمر بذاته ولكنه يستمر بقدرة الله سبحانه وتعالى .

عندما يشاء الله

وحينئذ تبرز قضيتان هامتان . . يراهمها بعض الناس . . انهما متعارضتان . . وفى الواقع انهما متفقتان تماما . . القضية الأولى أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وله مشيئة فى أن يختار ولا يختار . . أى أنه أعطاه ميزة بالقدرة على الاختيار . . وهو ما لم يعطه لغيره من خلقه . . والقضية الثانية . . هى مشيئة الله التى يخضع لها كل شيء . . فى الكون . . فى قوله تعالى :

﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾

سورة الانفطار

والجواب على ذلك سهل . . فالإنسان حر فى أن يختار هذا أو يختار ذلك . . ولكن من منا يستطيع أن يحقق ما يريده بالضبط . . أنت تريد أن تؤذى إنسانا . . وتفعل كل ما فى استطاعتك لتصل إلى ذلك . . ولكنك لا تصل إلى ما تريد . . ربما قدمت شكوى فيه فتنقلب الشكوى عليك . . وبدل أن يصاب هو بالأذى . . تصاب أنت . . وربما حاولت أن تقتله مثلا . . وفى آخر لحظة ارتجفت يدك . . أو ظهر شيء أزعجك . . فطاشت الرصاصة . . ولم يتم شيء . . وفى أحيان أخرى . . تنجح فى مسعاك . . سواء كان خيرا أو شرا . . إذا التقى ما تريده مع المشيئة تم . . وإذا لم يلتق مع المشيئة لا يتم . . ولذلك

فالدين يأمرنا أن نسعى . . وأن نعمر فى الأرض . . وأن نقوم بما ينفع الناس . . هذا كله عبادة لله سبحانه وتعالى . . ثم تأتى بعد ذلك النتيجة . . فيجزى الإنسان على ما نواه وسعى فيه فعلا . . ولعل الحديث الشريف لرسول الله صلى الله عليه وسلم الذى يقول :

« إنما الأعمال بالنيات . . وإنما لكل امرىء ما نوى »

يفسر لنا ذلك تماما . . فمناسبة الحديث لشخصين خرجا مع رسول الله . . أحدهما مهاجر إلى الله . . والثانى كما قيل إلى امرأة يريدها . . ولما بلغ الأمر رسول الله . . قال إنما الأعمال بالنيات . . وإنما لكل امرىء ما نوى . . ولو كنت واقفا فى هذه اللحظة لرأيت الرجلين يخرجان مع رسول الله . . الظاهر واحد . . ولكن هذا له جزاء . . وهذا له جزاء آخر . . رغم أن العمل فى ظاهره واحد . . إنما فى حقيقته مختلف . . كذلك مشيئة البشر . . قد يسعى شخصان لهدف واحد . . أحدهما يحققه . . والثانى لا يصل إليه . . سواء اختارا طريق الخير أو الشر . . الاختيار لهما . . ولكن التوفيق . . أو الاتمام يأتى من المشيئة . . ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى يأتى يوم القيامة . . فيصفه بأنه يوم تبلى السرائر . . يقف اثنان أمام رجل فقير محتاج . . احدهما يضع فى يده المال سرا . . ويختفى دون أن يراه أحد . . والثانى يقف حتى يأتى الناس . . ويقول بأعلى صوته . . « جنيه كامل أهوه » ليسمعه الجميع . . وتكتب للأول حسنة . . ولا تكتب للثانى . . مشيئة الله سبحانه وتعالى أن يصل إلى الرجل جنيهان . . ولو عن طريق غير طريق ارضاء الله بالاحسان على الفقير . . فيأتيه جنيه بالاحسان . . ويأتيه جنيه آخر بالتباهى والتفاخر . . ورغم أن الوسيلتين مختلفتان . . إلّا أن المشيئة تمت . . ووصل إلى هذا الرجل رزقه الذى قدره الله له . . فالإنسان يختار بين البدائل نعم . . ويسعى فى الخير أو الشر . . نعم . . ويأتى الشيطان ليغرى . . وطاعة الله لتذكر الإنسان . . ثم يتم العمل إذا التقت المشيئة به . . أما إذا لم تلتق . . فقد يأتى شىء يوقف هذا كله . .

والأمثلة فى الحياة كثيرة . . قد تذهب إلى طبيب مشهور . . فيعجز عن أن

عندما يتوقف الكون !

يشخص لك الداء . . ويعالجك خطأ . . ثم يأتى طبيب صغير . . ربما بما نسميه نحن الصدفة . . ليكشف عليك . . فيهديه الله إلى المرض الذى تشكو منه . . وتتعجب أنت كيف يتفوق تلميذ على أستاذه . . مع أن الأول أكثر علما وخبرة . . والثانى لايزال مبتدئا . . ولكن الله يرد أن يلفتك إلى أن ما فى الكون هو الذى يعطيه . . وأنه إذا كانت القاعدة أن الطبيب المشهور الذى درس ونجح . . وأمضى سنوات طويلة من الخبرة . . هو الذى يستطيع أن يكتشف الداء . . فإن هذه القاعدة لابد أن تسرى . . لأن الحياة فى الأرض تمضى بالأسباب . . ولكن فى نفس الوقت يلفتك إلى أن الله سبحانه وتعالى هو الذى أعطى لهذا الطبيب ثمرة بحثه من العلم . . وأنه حين يسلبها منه فى حالة من الحالات . . إنما ليذكرنا أننا يجب أن نعترف بفضل الله على كل واحد فينا . . فيما وهبه اياه . . فعلم الطبيب الكبير هو فضل من الله . . أعطاه له بالأسباب . . وهى الاجتهاد والاطلاع والبحث . . حالة الطبيب المبتدىء الذى اكتشف الداء . . هو الهام من الله أعطاه له ليلفت الناس إلى أنه إذا كان قد وضع فى الكون قوانين . . فهناك فوق القانون مشيئة الله . . وأن هذه القوانين تعمل باذن الله وقدرته . . ولذلك فهى نعمة يجب أن نشكر الله عليها .

وفى حياة كل منا أمثلة كثيرة . . لأشياء أرادها وعمل من أجلها . . ويسرها الله له . . وأشياء أرادها وعمل من أجلها . . ولم ييسرها الله له . . حياتنا كل يوم فيها هذه النماذج التى نعيشها كل يوم . . على أننا سنناقش هذا الموضوع بالتفصيل عندما نصل إليه .

تكوير الشمس . . وفاعليتها

نعود إلى الآية الكريمة . . « اذا الشمس كورت » . . الصورة الموجودة . . ان الشمس تبدو لنا على صوة كرة . . فما معنى قول الله سبحانه وتعالى . . « إذا الشمس كورت » . . بينما هى فى واقعنا تبدو لنا مكورة فعلا . .

وقبل أن نتناول هذه النقطة . . نقول أن تكوير الشمس الذى يبدو لنا . . هو ما لا يتصل بفاعليتها . . فالشمس سواء بدت لنا مكورة . . أو غير ذلك . . الذى نستفيده منها . . هوالأشعة التى تصل إلينا من الشمس . . وأشعة الشمس منبسطة فى الوجود كله . . فى الكون كله . . فإذا كانت الشمس على هيئة كرة . . أو غير ذلك . . دون أن تصل أشعتها إلى الأرض . . انعدمت الفائدة منها بالنسبة للبشر . . وتكوير الشىء فى اللغة . . معناه طى الشىء . . إيذانا بانتهاء مهمته . . فأنت اذا طويت الكتاب . . معناه انك انتهيت من قراءته . . أو قراءةالفقرة التى تريد الانتهاء منها . . وهناك فى الكون أشياء تؤدى مهمتها بأن تطوى . . وأشياء أخرى تؤدى مهمتها بالبسط . . فالثوب مثلا اذا انتهيت منه طويته . . ومقبض الباب لابد أن تقبض عليه حتى يؤد مهمته بالفتح أو الاغلاق . . إذن فما معنى إذا الشمس كورت . . انها لفتة من الله سبحانه وتعالى .

والقرآن كما قلت يخاطب كل العقول . . ومن هنا فإنه لا يخاطب هؤلاء . . ويخاطب معهم عقول كل البشر . . ولذلك فإن شكل الشمس كما تبدو لنا من بعيد أو شكلها عندما نقترب منها . . حيث نرى ألسنة اللهب تمتد إلى مسافات بعيدة . . فكل هذا لا يأتى فى الحسبان . . لماذا . .؟ . . لأنه تنطبق عليه القاعدة جهل لا يضر . . بمعنى أنه سواء علمت أسرار الشمس أو لم أعلمها . . وسواء قضيت السنوات الطويلة أدرس فى طبيعة تكوين الشمس أو لا أدرسه . . فإن

هذا كله لا يؤثر فى انتفاعى بالشمس فى حياتى اليومية . . فأنا أستفيد بالشمس . . كرة كانت . . أو ألسنة لهب . . أو أى شكل آخر . . ذلك أن استفادتى منها هى من الأشعةالتى تصل إلى الأرض من الشمس . . تلك التى تبعث الدفء فى الأرض . . وتنمى الزرع . . ولها دور كبير فى حياة الكون كله .

فإذا كانت الشمس على هيئة كرة ، أو غير ذلك . . فهو ما لا يتصل

بفاعليتها . . إذ أنها لو كانت على شكل من الأشكال . . ومنعت أشعتها من أن تصل إلى الأرض . . انعدمت فائدة الشمس للبشر . . وأصبح وجودها كعدمه . . مادامت لا تؤدى مهمتها فى حياة الإنسان .

ولكن ما معنى قول الله سبحانه وتعالى :

« إذا الشمس كورت »

انها لفتة من الله سبحانه وتعالى تعنى أنه إذا الشمس قد انتهت مهمتها فى الكون . . والأشعة المنبسطة التى ترسلها كل يوم إلى الأرض كخيوط دقيقة تنزل منها . . هذه الأشعة كورت . . وأصبحت ملفوفة . . أى أنها أصبحت تحيط بالشمس وحدها . . دون أن تصل إلى الأرض . . فقول الله سبحانه وتعالى :

« إذا الشمس كورت »

معناه انه لم يعد لها مهمة فى الوجود . . وهذه من علامات انتهاء الحياة فى الكون . . وقيام الساعة .

علامة نهاية . . وبداية

ولكن لماذا استخدم الله سبحانه وتعالى فى الآية :

« إذا الشمس كورت » .

ذلك ليعطينا الفرق بين الدنيا والآخرة . . فهذه علامة لنهاية وبداية . . نهاية عالم نعيش فيه بالأسباب . . وبداية عالم تنتهى فيه الأسباب . . ففى الدنيا . . الحياة تسير طبقا لقوانين معينة وضعها الله سبحانه وتعالى . . وهذه القوانين نستمد منها الحياة . . فمهمة الشمس فى ارسال أشعتها إلى الكون . . هى استمرار الحياة الأرضية . . ولكننا فى الآخرة لسنا محتاجين إلى هذه الأسباب . . وذلك فإن الشمس تنتهى مهمتها وتصبح الحياة . . أو الوجود . . بطريقة مخالفة . . ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

عندما يتوقف الكون !

« يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات . . »

لماذا ؟ . . لأن الأرض هذه خلقها الله . . وفيها عناصر الحياة بالسبب . . فوضع فيها العناصر التى تمد النبات بالغذاء . . والتى تمد الأرض بالماء . . إلى آخر ما هو موجود فى خلق الله . . مما يتناسب مع الحياة على الأرض . . والإنسان عليه أن يزرع ويجتهد . . ويعمل الإنسان . . حتى يستطيع الحياة على الأرض وحتى تمضى هذه الحياة التى وضع الله لها القوانين ، ولكن فى الآخرة لن يعمل الإنسان . . ولن يزرع . . ولكن الله سيعطيه بلا أسباب . . يخطر ببالك الشيء . . فيجيء لك . . إذن فالأرض بحالتها الراهنة . . والسماء بما تؤدى من مهام . . كلها لخدمة حياة الإنسان . . على الأرض . . حيث أن الله سبحانه وتعالى قد سخر كل ما فى السموات والأرض من قوى لخدمة الإنسان . . ولكن الأمر يختلف فى الآخرة . . لأن هذا التسخير ينتهى . . وتصبح الحياة مختلفة تماما . .

فقوله تعالى :

﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ ﴾

سورة التكوير

معناه التف ضوؤها . . واشعاعها . . ولم يعد يصل إلى الكون . . وانتهت مهمة الشمس . . وطويت أشعتها . . وأصبح الوجود غير الوجود . . وتمضى السورة الكريمة

﴿ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ ﴾

سورة التكوير

ومعنى الانكدار فى اللغة هو الانصباب . . أو الانقضاض . . ومهمة النجوم تأتى فى وجودها . . فى أماكنها فى الفضاء . . فإذا ما هوت النجوم كما سيحدث عند قيام الساعة . . فمعنى ذلك أيضا أن مهمتها قد انتهت هى الأخرى . . ولم

يعد لوجودها بشكلها الحالى معنى . . وتمضى السورة الكريمة :

﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ ﴾

سورة التكوير

وهذه الجبال الشاهقة التى نراها أمامنا راسية شامخة . . هى الرواسى التى وضعها الله سبحانه وتعالى فى الأرض . . لتجعل حركة الأرض رتيبة ليس فيها أى اضطراب . . وطبعا ما ينطبق على الشمس والنجوم . . ينطبق على الجبال . . فى مهمتها هى فى الحياة الدنيا وحدها . . لتحفظ التوازن فى الكرة الأرضية . . وتمد البشر بما يحتاجون من معادن . . وتتكون على قممها الثلوج التى تمد عددا من الأنهار . . والعيون بالماء . . إلى آخر ما نعرفه . . وما لا نعرفه عن مهمة الجبال فى الأرض . . ولكن هذا كله لا لزوم له فى الآخرة . . حيث ستتبدل الحياة تماما . . ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ ﴾

سورة النبأ

« وتمضى السورة الكريمة » :

﴿ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ ﴾

سورة التكوير

واللفظ يأتى فى القرآن . . يحاول العلماء أن يجيئوا بكل الاستعمالات اللغوية له . . وينظروا أنسب معنى لغوى يؤديه . . فالعشار تطلق على النياق . . ومفردها ناقة . . ويكون مر على حملها عشرة شهور . . وذلك إيذانا بأن الواحد سيصبح اثنين . . ثم يأتى مع المولود الجديد اللبن الذى يكون منه غذاؤه . . وغذاء الإنسان . . ومعنى ذلك أن التكاثر هنا غير مطلوب بأسبابه . . أى أنه إذا العشار عطلت . . لم يصبح هناك أية حاجة إلى الازدياد البشرى بالطريقة التى

وضع الله قوانينها فى الأرض . . فتلك الطريقة . . طريقة الميلاد وضعت حتى لا ينقرض كل من يعيش على الأرض بعد فترة من الزمن . . ذلك أن الحياة ما هى إلا رحلة قصيرة فى عمر الزمن . . وإذا كان الموت مكتوبا على كل حى . . فإن الميلاد هو الذى يضمن للحياة استمرارها وحركتها . . وإلا إذا كان الموت بلا ميلاد . . يكون هناك انقراض للبشرية . . وكل من فى الكون . . والله سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا فى هذه النقطة . . إلى أنه لا حاجة وقت أن تأتى الآخرة لهذا التزايد والميلاد . . لأن الآخرة خلود . . فهى إما جنة أبدا . . أو نار أبدا . . أى أنه فى هذه الحالة لسنا محتاجين للتكاثر العددى . . للابقاء على النوع . . لأنه إذا كان الله سبحانه وتعالى قد ألغى الموت فى الآخرة . . ووضع بدلا منه الخلود فإنه لا حاجة للتكاثر بالأسباب البشرية وستصبح كل النعم بلا أسباب . . بكلمة كن . . وبمجرد التفكير فيها . . والله سبحانه وتعالى وضع التكاثر بالأسباب فى الدنيا . . ولكن فى الآخرة ما دامت قد ألغيت الأسباب . . يكون التكاثر أو الزيادة إذا أرادهما الله سبحانه وتعالى . . أو بالخلق المباشر . . يكون بلا أسباب سوى كلمة كن . .

والله يريد أن يقول لنا أنه فى يوم القيامة ستتوقف كل الأسباب التى وضعتها للحياة فى الأرض . . ويتبدد كل شىء . . وهناك تفسير آخر بأن هذا المعنى يشمل أيضا السحب . . تحمل الأمطار إلى الأرض . . لينمو الزرع ويزدهر . . ولا حاجة لذلك ولا مهمة فى الآخرة . . ولذلك فإن السحب ستتعطل مهمتها . . وتتوقف .

ثم تمضى السورة الكريمة :

﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ ﴾

سورة التكوير

ومعنى الوحوش حشرت أى جمعت . . وهل الوحوش غير مجموعة . . طبعا لا . . لأن كلمة الوحوش . . معناها الأنعام غير المستأنسة . . فلا يمكن أن

نستأنس الوحوش المفترسة .. ونرعاها مثلا .. ونهيىء لها أسباب التكاثر .. كما نفعل مع الأنعام المستأنسة التى خلقها الله للإنسان .. لتكون سببا مساعدا فى حياته .. بامداده بالألبان واللحوم .. وغير ذلك مما تؤديه من مهام فى الأرض .. وبعض الناس يقول انك يمكن أن تستأنس الوحوش .. فهناك مدربو الحيوانات المفترسة .. وهؤلاء يستطيعون أن يسيطروا عليها بشكل ما .. حتى يفعل الأسد ما يريده المدرب منه .. ويطيعه .. ويصبح بلا خطر عليه .. وهذا يصح فى بعض الأحيان .. ولكن الشيء الذى لم يتنبه إليه البشر .. أن هذه أشياء فردية .. لا تمثل قاعدة عامة فى الكون إننا لا نرى مدربا مهما كانت مهارته أو قدرته .. يستطيع أن يستأنس أسدا .. بحيث يصبح هذا الاستئناس وراثيا .. أى أن ينتقل إلى ابن هذا الأسد .. ومن ابنه إلى ابنه .. أى أن الاستئناس هنا عمل فردى لا يخرج النوع عن طبيعته الوحشية وأن أخرج فردا واحدا منه كما أن الائتناس بهذه الطريقة لا يتم بالكمال الالهى .. ولكن بالقدرة البشرية المحدودة .. فقد يفترس الأسد مدربه فى لحظة غفلة منه .. ولكنك لا ترى .. ولا يمكن أن ترى كبشا .. أو جملا .. أو بقرة تفترس إنسانا .. بل انك ترى الطفل الصغير الذى لا حول له ولا قوة .. يقود ذلك الجمل الهائل .. فيطيعه .. ويفعل ما يريد .. رغم أن قوة الجمل تساوى قوة الطفل مائة مرة .. ولكن الذى أخضع الجمل للطفل ليس قدرة الطفل .. ولكنها قدرة الله التى جعلت هذا الجمل بضخامته يخضع خضوعا تاما للطفل الصغير على ضآلته لأنه مسخر من الله له .

فالإنسان لا يستطيع أن ينقل الاستئناس إلى وحش من الوحوش .. ويجعله مسخرا لخدمته ولذلك فإن ما يحدث بالنسبة للوحوش .. هو استئناس من ذات واحدة .. أو من وحش واحد لإنسان واحد .. لا يتكرر ولا يتبدل إذا تغير أحدهما .. ولكن الأنعام الأخرى مستأنسة بتسخير الله لها لخدمة الإنسان ..

ولكن لماذا قال الله سبحانه وتعالى :

عندما يتوقف الكون !

﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝ ﴾

سورة التكوير

ما معنى .. إذا الوحوش حشرت ؟

السؤال هنا .. هو لماذا قال الله سبحانه وتعالى :

« وإذا الوحوش حشرت » ..

خلق الوحوش أساسا فى الكون له حكمة لابد أن ننتبه إليها .. ذلك أن الله سبحانه وتعالى يظهر فى الكون آيات تلفتنا إلى قدرته .. ونحن حين نرى الحيوانات المستأنسة فى خدمتنا .. نسخرها حيث نشاء .. نعتقد أن هذا نابع من قدرتنا .. ولكن الله سبحانه وتعالى .. يريد أن يلفتنا إلى أن هذا تسخير منه ـ وليس قدرة منا ـ ولذلك فقد خلق الوحوش لترد على أى إنسان يريد أن يدعى أنه قد أخضع ما خلق الله له من أنعام فى الكون بقدراته هو .. فيقول له ! إذا كنت قد فعلت ذلك بقدراتك .. فهذه وحوش لم أسخرها لخدمتك .. فاستخدم قدراتك وأرنى إذا كنت ستستطيع أن تسخرها أنت أيها الإنسان لخدمتك .. ولذلك فإننا حينما نرى هذه الحيوانات المفترسة .. القليلة العدد فى العالم .. تتذكر ذلك الكم الهائل من الأنعام التى خلقها الله لنا .. وسخرها لنا بقدرته .. فنحس أن الكون يسير بقدرة الله .. ونشكر الله على نعمه ..

« وإذا الوحوش حشرت » ..

معناه أن طبيعة تكوينها .. أنها غير مجموعة بل نافرة .. وغير خاضعة لنا .. ونحن لا نجتمع معها فى مكان واحد .. بل هى تنفر منا .. ونحن ننفر منها .. ومعناه أيضا أنها نافرة طوال فترة حياتها تبحث عن فرائسها .. ومعناه أيضا أنها نافرة من بعضها البعض .. لأنها تعتدى على بعضها البعض .. ويفترس الواحد منها الآخر من نفس النوع أحيانا دفاعا عن نفسه .. والقوى منها يفترس

الضعيف . . وقد يستطيع الضعيف أن يتغلب على القوى إذا أخذه على غرة . . هذه الوحوش يوم القيامة تجدها قد جمعت وظهرت كلها . . تقف أمام الناس هادئة خاشعة من هول الموقف . . أى أنها تخرج عن طبيعتها . .

وتمضى السورة الكريمة :

﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝ ﴾

سورة الانفطار

ما هو معنى التفجير . . إذا أردنا أن نصل إلى المعنى الذى يمكن أن يدخل إلى أذهاننا بسهولة ويسر . . فلنتذكر تفجير ذرة . . وما يحدثه من طاقة هائلة . . من النيران والدمار . . فإذا طبقنا نفس المعنى على البحار . . نجد أن المعنى قد اقترب منا فى قوله تعالى :

« وإذا البحار فجرت »

أى إذا امتلأت نارا أو أنها تضطرب وتهيج.والمهم فى هذا المعنى هو الخروج عن المألوف الذى تعودناه .

كيف تسأل ؟

ثم نأتى بعد ذلك إلى قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝ ﴾

سورة التكوير

والناس هنا تتعجب من هذه الصياغة . . « الموءودة » هى التى وضعت فى التراب حية بعد ولادتها . . وكانت عادة وأد البنات منتشرة عند العرب فى الجاهلية . . ولكن الآية تقول :

عندما يتوقف الكون !

﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ ﴾

سورة التكوير

وهل الموءودة تسأل . . وهل تعرف بما تجيب . . وهى التى اعتدى عليها بغير ذنب جنته . .

إن هذه العادة السيئة التى كانت سارية فى الجاهلية كانت عملية فظيعة جدا ضد المرأة . . فالطفلة التى حدث عليها مثل هذا العدوان الرهيب . . أنت سبب فى ايجادها . . أى هى بعض منك . . ومن مثلها وُجدْت . . وهذا دليل على قساوة القلب . . وقساوة العطف . . ذلك أنك عندما تقوم بهذا العمل تتجرد من انسانيتك تماما . . لأنك تعاقب طفلة على ذنب أنت سببه . . وتعاقب نوعا على ذنب منه وجدت . . وتعتدى على من لا حول له ولا قوة . . ومن لم يقم بأى أذى . . أو أى عمل ضدك . .

والله سبحانه وتعالى حين يأتى بهذا . . إنما يريد تقريع الأب الذى أقدم على هذه العملية التى تخالف كل قيم الانسانية . . ويريد أن يعرفه أنه سيسأل عن ذلك يوم القيامة . . فيوجه السؤال للطفلة . . ما السبب الذى دعا أباك إلى أن يقوم بهذا العمل الوحشى . . ماذا فعلت حتى يقوم أبوك بمعاقبتك بهذه الطريقة . . وطبعا سيكون الرد أنها لم تفعل شيئا . . ويتم حساب الأب مادامت هذه الطفلة لم تكن قد ارتكبت ذنبا . . فلماذا فعلت بها هذا . . وهو فى حقيقته باستخدام هذه الألفاظ . . إنما أراد الله أن يستحضر أمام الأب الصورة الكريهة لعمله ضد طفلته . . فيأتى بالطفلة البريئة ويسألها لماذا قتلك هذا الأب بلا ذنب . . والأب حاضر يستحضر كل هذا المنظر الذى حدث فى الحياة الدنيا . . فيعرف هول ما ارتكبه . . ولو أن السؤال كان للأب . . فربما حاول اختلاق الأسباب أو تعليل فعلته . . ولكنه سؤال الابنة أمام الأب يجعله يحس بعظم ذنبه . . ولا يجد ردا .

ما هى النفس

ثم تمضى الآية الكريمة :

﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ ﴾

سورة التكوير

وكلمة النفوس حار فيهاالفلاسفة على مر العصور . . مرة يقولون أنها الروح . . ومرة يقولون أنها القلب . . ومرة يقولون أنها المادة . . ولكن الحقيقة أن كلمة نفس تطلق على امتزاج الروح بالمادة . . فإذا كانت الروح وحدها دون أن تدخل أو تمتزج بأى مادة . . سميت الروح . . وإذا كانت المادة وحدها . . دون أن تمتزج بأى روح . . سميت المادة . . فإذا تم الامتزاج سميت النفس . . والله سبحانه وتعالى يقول :

« الله يتوفى الأنفس » .

ما معنى يتوفاها . . معناها أنه يفصل الروح عن الجسد . . هذا هو معنى توفى الأنفس . . فإذا عادت الروح إلى الجسد . . عادت النفس من جديد . . ومادام هذا هو مدلول النفس . . أى امتزاج الروح بالجسد . . فكيف يقول الله سبحانه وتعالى يوم القيامة :

« وإذا النفوس زوجت » . .

معنى ذلك أن الأرواح التى خرجت من الأجساد عادت إليها مرة أخرى . . فالموت هو انفصال الروح عن الجسد . . ومعنى قوله تعالى :

« وإذا النفوس زوجت »

أى أن المادة ستعود إلى الروح . . وتعود النفس مرة أخرى بعد أن ذهبت بالموت . . ولكن المعنى هنا يتجاوز هذا . . بحيث يمتد إلى الحياة الدنيا كلها . . فإذا النفوس زوجت . . ليس معناه فقط أن المادة والروح عادتا مرة أخرى

فالتحمتا . . ولكن معناه أنهما عادتا معا أيضا . . كل عمل قام به الإنسان فى الدنيا . . وافترق عنه ، سواء كان خيرا أو شرا ، فالعمل الذى يقوم به الإنسان فى حياته الدنيا . . فيه أشياء لا تفارقه إلا بالموت . . وهناك أشياء اقترفها أو أقوم بها لفترة من الفترات ثم أنساها . . وأشياء أنسى الله فيها . . وأنسى أنه رقيب حسيب . . وأشياء أخرى أعتقد أن أحدا لم يرنى . . مع أن الله يسمع ويرى . . المهم أن كل هذه الأشياء سواء التى افترقت وأنا فى الحياة . . أو التى واصلت معى الرحلة إلى نهاية الحياة . . كلها ستأتى فى هذه اللحظة . . مع عودة الروح والمادة الى امتزاجهما . . تعود معهما أعمال الدنيا التى ظن الإنسان أنها انتهت . . ولكن بعض الناس يظن أن عمل الشر الذى قام به مادام قد فارقه . . قد انتهى . . وبعض الناس يظن أن عمل الخير الذى قام به مادام فارقه قد انتهى . . ونقول لهؤلاء وهؤلاء . . لا . . فكل شىء محسوب ومكتوب . . وذلك الذى يظن أنه فعل ذنبا . . وهرب من العقاب . . أو لم يره أحد ، والذى يفرح ويسمى نفسه بالعبقرى ، أو الفهلوى لأنه استطاع أن يخدع الناس . . ويحصل على مال حرام . . أو يسرق جهد غيره . . إنما هو فى الحقيقة يتمتع بقسط كبير من الغباء . . لماذا ؟ . . لأنه خاف من قدرة الإنسان المحدود القدرة . . ونسى الله بقدرته المطلقة . . التى ليس لها حدود ولا قيود . . هو خدع بشرا . . أو مجموعة من البشر . . تلك مسألة تافهة . . ولكن الله يسمع ويرى . . وهو يراه . . وهذا هوالمهم . . لأن قدرة الله تفوق قدرة البشر جميعا ملايين المرات . . ولا أدرى كيف يفرح انسان بالهرب من مجموعة لها قدرات محدودة . . وينسى أن قدرة الله سبحانه وتعالى تراقبه . . وأن الله عزيز مقتدر . . ولو فكر الإنسان بذرة من العقل . . لعرف الحقيقة أنه لم يخدع إلا نفسه وأنه لم يكسب . . بل خسر كثيرا . . لماذا ؟ . . لأنه فى انشغاله ولهفته على أمور الدنيا . . خاف من عين بشر تراه . . أو علم بشر يصل إليه . . ونسى عين الله التى لا تنام . . وعلمه الذى لا يغفل عنه شىء فى الأرض . . ولا فى السماء . . تلك حقيقة لابد أن نتذكرها جميعا . . لأنها أساس الإيمان . . فحين ننسى الله ونخاف البشر . . نكون قد خرجنا من دائرة الإيمان الحقيقى .

الحقيقة .. والبشر

ولذلك يمضى الله سبحانه وتعالى فى السورة الكريمة :

﴿ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ ﴾

سورة التكوير

ما معنى نشرت .. معناها أن هذه الصحف كانت مطوية .. مخفية عن البشر فى الدنيا .. فبعض الناس كان يفعل أشياء فى الخفاء .. لا يعلمها أحد .. والبعض الآخر كان يحرص على اخفاء حقيقته .. ويظهر بعكس هذه الحقيقة .. وبعض الناس كان يقول شيئا .. وفى قلبه شىء آخر .. يكذب وينافق .. ويفعل ما يغضب الله .. وطوى هذا كله .. وانتهى برحيل الإنسان عن الحياة .. ونسى .. ولم يعد شيئا مذكورا .. هذا هو المألوف فى الدنيا .. ولكن وكما قلت فإن الآخرة هى خروج عن كل مألوف فى الحياة الدنيا .. ولذلك فإن ذلك الذى طوى وأصبح نسيا منسيا .. وأعتقد الناس أنه انتهى وفات .. ولم يعد له وجود دنيوى سينشر يوم القيامة ويعرف .. ويراه صاحبه أمامه .

ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾

من الآية ١٤ سورة الإسراء

ويقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟

﴿ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾

سورة الكهف

فالذى يعتقد أنه حصل على مغانم فى الدنيا بطريقة أو بأخرى مما حرمه الله . . سيواجه يوم القيامة بأن كل هذا قد حضر أمامه . . وجاءت لحظة الحساب . . إنه لا يواجه هذا فى الدنيا بل يواجهه فى الآخرة . . وبينما هو يحسب . . وكل من فى الأرض يحسب أن ما فات طوى . . فإن الله سبحانه وتعالى يريد أن يذكرنا . . أنه إذا كان هذا هو المألوف فى الدنيا . . فمقاييس الآخرة تختلف . . وكل شىء سيكون حاضرا . . ذلك الذى ظنه الجميع نسيا منسيا .

إذن فالعمل الدنيوى يكون له وجود فى الآخرة ساعة يتم الحساب . . والذى يعتقد أنه حصل من مغانم فى الدنيا بطريقة أو بأخرى مما حرمه الله . . سيواجه يوم القيامة بأن كل هذا قد حضر أمامه . . وجاءت لحظة الحساب التى قد لا يواجهها فى الدنيا . . بينما يواجهها فى الآخرة .

إن الذى يعاقب على ما فعله فى الحياة الدنيا . . خلال فترة وجوده وحياته . . هو من رحمة الله عليه . . ذلك أن عقاب الدنيا مهما كان قاسيا . . لا يمكن أن يقارن بيوم القيامة .

وتمضى السورة الكريمة :

« وإذا الصحف نشرت »

. . ما معنى نشرت . . معناها أن هذه الصحف كانت مطوية مخفية عن البشر فى الدنيا . . فالبعض كان يحرص على اخفائها . . والبعض نسيها أو نسيتها الدنيا بعد وفاته ورحيله عنها . . ولكن هذه الصحف التى كانت مطوية تخرج للإنسان يوم القيامة . . ثم تمضى السورة الكريمة :

﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ ﴾

سورة التكوير

.. وعلم الإنسان عن السماء علم محدود جدا .. رغم كل الاكتشافات التى تمت حتى الآن .. فالسماء لا تزال بنيانا مغلقا أمام البشر .. وستظل كذلك إلى يوم القيامة .. وكل الاكتشافات التى تتم .. والتى ستتم فى المستقبل ستبقى معها أسرار السماء مغلقة على العلم البشرى .. فاتساع السماء يمتد ملايين السنوات الضوئية التى لا يمكن أن يصل إليها علم بشر .. والله سبحانه وتعالى حين يقول :

« وإذا السماء كشطت »

.. معناها كشف أسرارها للبشر .. ويرى ويعرف ما لم يكن يراه ويعرفه فيما مضى .. أو فى حياته الدنيا .. فأسرار السماء مغلقة أمام البشر تماما .. وبعدها لا نهائى .. والله سبحانه وتعالى قد جعلها مليئة بالأسرار .. ولا نهائية فى اتساعها .. حتى لا يصل إليها علم بشر .. فالإنسان محتاج إلى ملايين السنين ليصل إلى بعض الكواكب التى نراها .. فكيف لا نراه ؟

﴿ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ ﴾

سورة التكوير

.. هذه عملية الهول الأكبر .. يوم يرى الإنسان الجحيم .. ويرى الجنة .. يراهما عيانا بيانا .. والله سبحانه وتعالى يقول فى سورة التكاثر :

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ﴾

سورة التكوير

ومعنى ذلك أن أنواع العلم عند الله متعددة . . والله سبحانه وتعالى يعطينا العلم أولا خبراً من عنده . . يصدقه المؤمن . . وينكره الكافر . . ويبقى هذا الخبر موضع جدل عند غير المؤمن . . ثم بعد ذلك عندما يصدق الخبر الذى قاله الله سبحانه وتعالى . . يكون ذلك عندك علم يقين . . أى أنك تؤمن يقينا بأنه مادام الله سبحانه وتعالى هو القائل . . فهو علم يقينى لاشك فيه . . وكأننى أراه . . ولو أننى لم أره عين اليقين .

ثم ينتقل بعد ذلك إلى صورة حسية يوم القيامة . . أو عندما يشاء الله بمعنى أنه بعد أن كان معنى أو صورة فى عقلك يصبح صورة تراها بعينيك . . وهذه الصورة هى حق اليقين . . الذى لا جدال فيه . . وذلك فى يوم القيامة . . يوم ترى كل شىء بعين اليقين .

والإنسان فى حياته الدنيا . . تغيب عنه أشياء كثيرة . . فالله سبحانه وضع سنة الحياة متكاملة ورسم طريقها كاملا . . ولكن بعض الناس تطبق القوانين . . فيما يتعلق بأمور الدنيا . . وينساها أو ينكرها فى دين الله ، فأنت إذا

بدأت حياتك . . ذهبت إلى المدرسة لتدرس وتحصل . . وأنفقت الأموال . . وأمضيت السنوات . . فى عمل مضن . . فإذا سألك أحد لماذا تفعل هذا . . ولماذا لا تلعب وتلهو كما تريد . . بدلا من السهر والمذاكرة والارهاق . . قلت له : انى أبنى مستقبلى . . واقتنع هو بذلك . . بل أن ولى الأمر يغضب ويثور . . عندما يرى اهمالا من ابنه فى بناء مستقبله . . ثم تأتى الثمرات بعد ذلك .

وأنت حين تمرض مثلا . . يقول لك الطبيب : لا تقرب هذا الطعام . . وخذ هذا الدواء . . والطعام الذى يحرمك منه الطبيب . . قد يكون لذيذا محببا إلى نفسك . . والدواء الذى يعطيه لك يكون مرا كريها إلى نفسك . . ولكنك

رغم ذلك كله تمتثل لأوامر الطبيب حتى تشفى من مرضك . . وتعود إليك صحتك . . وأنت فى شبابك تحاول أن تعمل وتكسب بقدر ما يمكن . . وأحيانا ترهق نفسك . . لماذا ؟ حتى تجد حاجتك عند الشيخوخة . . أو عندما تضعف صحتك . . ولا تقوى على العمل . .

ولماذا ننساه فى الدين ؟

والعجيب أنك تطبق هذا كله فى حياتك الدنيا على أساس أنه أمر مسلم به . . وتتهم من لا يفعل ذلك بأنه فاقد العقل . . يجنى على نفسه . . وسيحصد الفشل والألم فى حياته . . فالطفل الذى لا يذهب إلى المدرسة . . نقول أن أباه ناقص عقل . . لأنه لا يعده للمستقبل . . والمريض الذى لا يتناول الدواء ولا يمتنع عما يضره من الطعام . . تتهمه بضعف الارادة . . وتقول أنه يجنى على نفسه . . والإنسان الذى لا يعمل وهو شاب ويلهو تقول أنه سيحصد الندم فى شيخوخته . . ولكن ذلك الذى يمضى فى الحياة الدنيا ناسيا الله . . وناسيا الآخرة . . وناسيا الحساب . . وناسيا كل ما ينتظره . . نقول عنه إنه إنسان فهلوى . . أو شاطر . . بينما نفس القوانين تنطبق عليه . . بل أقسى . . فهو يهدر حياته الدنيوية . . وعندما يصل إلى الآخرة . . يكون رصيده صفرا . . فى موقف الهول الأعظم .

نقول أن التلميذ الذى لا يذهب إلى المدرسة عندنا فاشل . . والمريض الذى لا يتبع أوامر الطبيب ناقص العقل . . والإنسان الذى لا يعمل فى شبابه قصير النظر .

لكن الذى يعصى الله فى الدنيا ولا يطيع أوامره . . ويضيع دنياه وآخرته . . لا ننظر إليه نفس النظرة . . مع أن قانون الله واحد فى جميع الأحوال . . والدراسة . . أو الدواء . . أو العمل الشاق . . ليست أشياء محببة إلى

النفس . . وهناك مما حرمه الله . . ما هو محبب إلى النفس . . ولكنك للأسف الشديد تجد بعض الناس يحرم نفسه من أشياء كثيرة . . ليحصل على الشهادة أو المال . . أو ليبرأ من مرض . . ولا يبذل نفس الجهد ليرضى الله ويمتنع عما حرمه .

وجاءت الساعة

« وإذا الجحيم سعرت . . وإذا الجنة أزلفت »

. . هنا يبقى وقت الحساب . . تماما كما تأتى السن التى يندم فيها الشاب على أنه لم يتعلم . . والمريض على أنه لم يتناول الدواء . . والشاب على أنه لم يعمل . . يأتى ذلك الوقت الذى يندم فيه الإنسان على أنه عصى الله . . رغم أن الله سبحانه وتعالى قد أمهله مرات ومرات . . وأراه العذاب الأصغر . . وذكره بما يفعل . . ولكن النفس البشرية تريد أن تسعى إلى نفع عاجل . . وتعتقد أن الدنيا بلا نهاية . . والحياة ـ مهما بلغ العمر ـ ممتدة ، حتى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : **« لم أر يقينا أشبه بالشك من يقين الإنسان بالموت »** . . ذلك أن الإنسان مهما بلغ عمره . . وهو يعرف يقينا إنه ميت . . يظن أن ذلك لن يأتى إلا بعد سنوات وسنوات . . ولقد شاء الله سبحانه وتعالى أن يضع حدودا للاستمتاع البشرى . . ولكن الطمع البشرى ظل بلا حدود . . فالإنسان إذا أسرف فى الطعام مرض . . وإذا أسرف فى الرفاهية أصابت جسده العلل التى أصبحت تعرف الآن عند الطب بأمراض الرفاهية . . أو أمراض المدنية . . ولهذا حكمة .

إن ما يمكن أن تتمتع به وقتا أو كمية محدود . . حتى تحس أن ذلك المزائد عن الحد قد أعطى لك لتعين به غيرك على حركة الحياة . . وانك إن لم تفعل ذلك فلا فائدة له عندك . . ولكننا مع هذا كله . . وفى مشوار الحياة القصير . . ننسى أن الله يسمع ويرى . . وننسى أن الحساب الذى أخبرنا الله عنه . هو علم يقين فعلا .

ولو تذكرنا هذا لعرفنا تفاهة ما نحصل عليه كل قانون من هذه القوانين . . حكمة تقديم العمل أولا للحصول على الثمار . . وهذه الحكمة لا تمضى بدونها الحياة . . ونحن حريصون عليها فى الأعمال الدنيا . . ننساها بالنسبة للآخرة . . ولذلك يذكرنا الله سبحانه وتعالى بها .

ثم تمضى السورةالكريمة :

﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ ﴾

سورة التكوير

. . أى أنه إذا حدث هذا كله . . وخرج كل ما فى هذاالعالم عن المألوف . . فالشمس والجبال . . والنجوم . . وكل آيات الكون . . الكبرى التى أخضعها الله سبحانه وتعالى للإنسان . . وسخرها له . . ووضع لها نظاما رتيبا تمشى به . . خرجت عن هذا النظام . . وعن هذا المألوف . . وعن مهمتها . . لأن الحياة الدنيا قد انتهت . . فى هذه اللحظة تعلم كل نفس ما أحضرت .

لماذا . . ما أحضرت

وبعض الناس يتساءل هنا . . لماذا استخدم الله سبحانه وتعالى « **ما أحضرت** » . . ولم يستخدم ما أحضر لها . . وهل النفس هى التى قامت باحضار هذه الأشياء إلى الآخرة . . أم أن قدرة الله سبحانه وتعالى هى التى أحضرتها له . . ولكن كما قلت وأقول دائما لكل لفظ فى القرآن حكمة ودقة فى الاختيار . . فلا يوجد شيء فى كتاب الله اسمه الصدفة . . بل كل شيء بميزان دقيق .

الله سبحانه وتعالى يقول:« **ما أحضرت** » . . لماذا ؟ لأن الله خلق الإنسان فى هذه الحياة . . ويبين له طريق الحق . . ثم بعد ذلك ترك له حرية الاختيار فيما يفعل ولا يفعل . . الذى آمن بالله سبحانه وتعالى وصدق الرسالات دخل فى

تعاقد إيمانى مع الله . . فقال يا ربى لقد آمنت . . وآمنت بمحض اختيارى . . وبهدايتك إلى . . ومن هنا فإننى بإيمانى التزمت بما تقول فى افعل ولا تفعل . . فكأن الإنسان المؤمن ألزم نفسه أولا بالإيمان بالله . . ولذلك نجد الله سبحانه وتعالى حين يذكر الأوامر التكليفية فى القرآن . . يقول :

« ياأيها الذين آمنوا »

فى كل أمر تكليفى . .

« ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام ».

أى يأيها الذين ارتضيتم الإيمان طريقا باختياركم الحر . . وصدقتم ، فهذا هو المطلوب منكم .

إذن فالإنسان شريك هنا فى كل ما يتم من أفعال يحاسبه عليها الله سبحانه وتعالى بالثواب أو بالعقاب . . ومن هذا يقول الله سبحانه وتعالى :

« علمت نفس ما أحضرت »

. . لأنه لم يحضر لها شيئا لا علاقه لها به . . وإنما أحضر لها كل شىء لها به علاقة . . والنفس هى التى آمنت . . وارتضيت . . وصدقت . . ودخلت فى عقد إيمانى مع الله سبحانه وتعالى . . ولذلك هى التى أحضرت . . أى فعلت أعمالها .

وأولئك الذين لم يؤمنوا . . هم رفضوا الدخول فى الإيمان بالله . . وبرفضهم هذا اختاروا طريقا آخر . . وفعلوا ما فعلوه . . باختيارهم هذا الطريق . . ولذلك أحضر لهم ما فعلوه . . لأنهم شركاء فى الفعل أيضا . . ليس بالإيمان . . ولكن بالعمل . . بإنكارهم رسالة الله . . وبالعمل على عكس ما رسمه الله سبحانه وتعالى منها للحياة فى افعل ولا تفعل . . فالنفس البشرية شريكة فى كل ما تقوم به . . وهذه النفس تعلم ما أحضرت فى يوم القيامة .

ولكن كيف تعلم ؟ إذا كانت نفسا مؤمنة . . فقد علمت بما آمنت به . .

نقول نعم .. ولكنها علمت به علم يقين ..

أى أيقنت أن هذه الساعة ستتم . . وأن الحساب سيكون . . ولكنها فى هذه اللحظة ترى كل شىء عن اليقين . . والنفس التى لم تؤمن أنكرت كلْ هذا . . وحاولت أن تستره ومضت فى الدنيا تحاول بعقلها المحدود أن تشق طريقا آخر بمنطق الهوى . . وليس بمنطق الحق . . فى هذه اللحظة لم تكن عند هذه النفس صورة ما يحدث يوم القيامة . . ولم تقبل على الصورة التى أنزلها الله سبحانه وتعالى . . فى هذه اللحظة تعلم علم اليقين . . وترى عين اليقين . . لا علم الصورة . . وبعد أن كان الأمر مبهما . . أو كان الأمر مستورا عنها . . أصبح واضحا مرئيا رأى العين . . بحيث لا يستطيع أى واحد أن ينكر أى شىء . . لا يستطيع من لم يؤمن أن ينكرْ فى هذه اللحظة وهو يرى عين اليقين .

والله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا لا تغتروا بثبات الوجود . . لا تغتروا بأن الشمس تشرق كل يوم . . والأرض ثابتة . . والجبال راسية . . والدنيا تبدو وكأنها دائمة . . لا تغتروا بكل هذا وينسيكم ما هو قادم . . ذلك أنه فى اللحظة التى تنتهى فيها الحياة . . سيذهب كل هذا فى غمضة عين . . كل ما نألفه . . وألفته سيضيع وينتهى . . وكل ما تعودت عليه سيختفى . . وسنجد عالما آخر مختلفا تماما عن ذلك الذى ألفته . . بل لا يمت إليه بصلة . . ستكشف لك أشياء لم تكن تعرفها . . وستظهر لك أسرار كانت خافية عنك . . إن هذا سيحدث ويجب أن نوقن أنه سيحدث .

ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

« فلا أقسم بالخنس » . .

. . لماذا يقول الله سبحانه وتعالى لا أقسم . .؟ بينما الهدف هو القسم . .

الله لا يجيء بمادة القسم

نقول : أن الله سبحانه وتعالى يقول فى السورة :
« **فلا أقسم بالخنس** » . .

ذلك أن الله عندما يحب أن يقسم . . لا يجيء بمادة القسم أبدا . . فيقول سبحانه وتعالى :
« **والطور وكتاب مسطور** »

. . ولا يقول أقسم بالطور . . فكما قلنا ، إذا شاء الله سبحانه وتعالى أن يقسم لا يأتى بمادة القسم . . وإنما حين ينفى القسم فهذا تأكيد له . . لماذا . . ؟ . . لأن القسم على الشيء معناه اعتراف من المتكلم . . لشبهة المخاطب فى الانكار . . فأنت حين تتحدث مع شخص عن شيء ما . . وتجد فيه الشك تقسم له . . ولكن الله سبحانه وتعالى فوق هذا كله . . ذلك أن علمه وقوله لا يصل إليهما الشك أبدا . . فإذا قال شيئا سبحانه وتعالى . . فيكفى أنه قال . . لأنه هو الله . . هو الخالق والعالم . . هو الله . .

ونحن إذا أردنا أن نقسم بشيء . . أقسمنا بالله . . لأنه عليم بكل شيء . . شهيد على كل ما يحدث . . ولكن الله سبحانه وتعالى ـ وذاته مصونة ـ حين يخاطبنا . . فإنه ليس محتاجا لقسم . . لأنه لا يوجد من هو أعظم ولا أعلم منه ليقسم به . . ومن هنا فإن قول الله وكلامه . . هما فى مرتبة القسم . . بل أعلى من مرتبة القسم . . مصداقا لقوله تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾

من الآية ٥٣ سورة فصلت

أى أنه كان يكفيهم أن هذا القول من الله ليتم التصديق . . ولكن الله سبحانه وتعالى لا يريد لأحد يوم القيامة أن يكون له حجة عليه . . ومن هنا يأتى بالبينات فى كتابه . . ويضع من المعجزة فى القرآن . . ما يجعله كتاب هداية وصدق . . لكل من يعقل . . ثم بعد ذلك يقول الله سبحانه وتعالى لهؤلاء المنكرين . . لو كنت مقسما . . لأقسمت بكذا وكذا . . ولكننى لا أقسم . . والقسم هنا لا ينصب على الحقائق التى يذكرها الله سبحانه وتعالى . . ولكنه ينصب على صدق التبليغ عن الله . . فيما جاء فى القرآن الكريم . . فالله سبحانه وتعالى حين يقول لا أقسم . . فى هذه السورة . . يأتى بعد ذلك بجواب . . وهو أنه لقول رسول كريم . . أى أن القسم لا ينصب على كلام الله . . ولكنه شهادة من الله سبحانه وتعالى على صدق البلاغ . . وصدق الرسالة . . إذن فنفى القسم هنا معناه أن الله سبحانه وتعالى لا يقسم . . لأن كلامه أعلى من أى قسم فى هذه الدنيا . . ولازالة الشبهة عما يثيره وسيثيره بعض المبطلين عن هذا القرآن . . يقول الله سبحانه وتعالى لو كنت مقسما . . لأقسمت بكذا وكذا . . ولكننى لا أقسم . . وهذا معنى النفى هنا . . ويأتى هذا ليس عن الحقائق الموجودة فى القرآن . . ولكن عن أمانة التبليغ . . وهو ما سنتناوله بالتفصيل عندما نصل إلى الآيات التى تشرح ذلك .

يقول الله سبحانه وتعالى :

« فلا أقسم بالخنس »

. . والخنس معناها الكواكب والنجوم . . تطلع من أماكنها فى أبراجها . . ثم تعود إلى أبراجها . . لماذا اختار الله النجوم فى هذا القسم . . وفى قسم آخر :

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) ﴾

سورة الواقعة

ذلك أنه فى خلق هذه النجوم من المعجزات والآيات الكونية . . ما يعجز البشر جميعا . . والبشر عاجز علميا وعقليا عن معرفة العظمات الموجودة فى خلق السماء . . ولكن تكفى ومضة من الومضات لترينا هذه العظمة كأن يكون بيننا وبين كوكب مئات الملايين من السنين الضوئية لنرى البعد الشاسع واللا نهائى الموجود فى الفضاء لمواقع هذه النجوم . . ونعرف أن الله سبحانه وتعالى حينما صنع هذا الكون الهائل . . صنع فيه أشياء تصل أبعادها إلى مسافات ينوء فيها العقل . . وجعلنا نراها لنحس بهذه العظمة . . على أنه فى خلق النجوم وحركتها . . والنظام البديع فى هذا الكون . . آيات على دقة متناهية . . يعرفها كل من يدرس علم الفلك . . أو يعمل به . . فإن الحركة التى تتم فى السماء بهذه الدقة المذهلة . . ومنذ ملايين السنين هى من صنع خالق عظيم . .

والسبب الثانى للقسم . . هو أن هذه النجوم تمثل لنا حقيقة هامة فى الكون . . فنحن نراها بالليل . . ولا نراها بالنهار مثلا . . مع أنها موجودة . . وهى تبدو لنا ثابتة بالعين المجردة . . ولكنها تتحرك . . ولها مجالات مغناطيسية . . إلى آخر ذلك . . ومعنى هذا أننا عاجزون عن أن ندرك حقائق كثيرة من الكون ادراك الرؤية النظرية . . ذلك أننا نعتقد أن ما نراه فقط هو موجود . . أما ما هو غائب عنا فلا وجود له . . ولكن الحقيقة غير ذلك تماما . . فهذه النجوم سواء رأيناها . . إذا جاء الليل . . أو لم نرها إذا طلع النهار . . موجودة فى أماكنها . . لا تغيب بمجرد طلوع الشمس . . ثم تعود عندما يأتى الليل . . فعدم رؤيتها بالنهار ليس اختفاء لها . . ولكنه عدم ادراك منا لهذا الوجود . . وهذه النجوم سواء لاحظنا حركتها أو لم نلحظ . . فلها حركتها فى الكون . . وعدم ملاحظتنا لهذه الحركة ليس معناها أنها توقفت . . بل هى موجودة . . ومن هنا فإن الله يريد أن ينبهنا . . إلى أن هناك أشياء نراها . . وأشياء تختفى عنا . . ولكن اختفاءها عنا ليس انعداما لوجودها . . ولكنه خروج بها من علمنا . . أو بصرنا . . ولذلك فإن ما سيحدث يوم القيامة بالنسبة للشمس والجبال . . وكل ما ألفناه فى حياتنا اليومية . . هو مخفى عنا . .

لا نستطيع أن نراه أونرصده . . ولكن هذا الاختفاء لا يعنى عدم الوجود . . ولكنه يعنى عدم العلم منا بهذا الوجود . . فإذا أخبرنا الله سبحانه وتعالى بأن هذا سيحدث . . فيجب فى هذه الحالة ألا نحكم عقولنا أو علمنا . . بل أن نصدقه . . لأنه يأتى ممن هو أعلم منا . . وممن خلق هذا الكون ووضع له

نظامه . . وإذا كنا نريد أن نعتمد على علمنا فقط . . فالله يأتى لنا بأشياء ظاهرة . . لا تحتاج إلى أبحاث . . وإنما يراها كل الناس . . ويقول لنا : انكم لا ترون هذه النجوم وقت طلوع الشمس . . ولكنها موجودة . . فالانكار هنا مردود عليه بأن علمكم قاصر . . وحواسكم قاصرة . .

والله سبحانه وتعالى قد ضرب على ذلك أمثلة كثيرة فى الاحساس بالوجود. . . مع عدم فهم الشيء . . أو قصورنا عن فهمه . . ولعل أبرز الأمثلة التى ضربها الله سبحانه وتعالى . . هوالروح . . ذلك أنه جعلها ظاهرة وخافية . . وتلك هى المعجزة . . ففى الوقت الذى هى فيه أوضح من الوضوح . . هى من أدق الأسرار التى لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى .

أين الــــروح ؟ . .

ونفسر هذه النقطة قليلا . . الإنسان أو أى كائن حى . . نقول : الإنسان يمشى ويتحرك . . ويرى . . ويسمع . . ويحس إذا كان حيا . . فإذا خرجت الروح ذهب كل هذا وأصبح جثة بلا حراك . . إذن نحن جميعا نرى الروح . . ليس فى ذاتيتها . . ولكن فى آثارها . . نراها فى أنفسنا . . ونراها فى غيرنا من البشر جميعا . . بل وفى كل الكائنات الحية . . والدليل على الروح هو القدرة على الحركة . . والكلام . . والرؤية . . والطعام والشراب . . وكل ما يفعله الإنسان فى حياته . . فلو خرجت هذه الروح لحملنا الجسد وواريناه التراب . . لأنه بدون الروح لا شيء .

هذه حقيقة ليست محتاجة إلى مناقشة .. لأننا نراها رأى العين .. ولا أحد يستطيع أن يجادل فيها .. لأنه لا أحد يستطيع أن يجعل الميت الذى غادرت الروح جسده .. يقوم بوظائف الحى .. الذى مازالت فى جسده الروح .. ومع ذلك فما هى الروح .. لا أحد يعرف .. وأين مكانها .. هل هى فى القلب الذى ينبض .. أو فى العقل الذى يفكر .. أو فى العين التى ترى .. أو فى الأذن التى تسمع .. أو فى اليد التى تفعل .. أو فى القدم التى تمشى .. إنها فى كل هؤلاء جميعا .. ولكننا لا نستطيع أن نحدد مكانها بالضبط .. قد يقول بعض الناس أن الروح فى كل خلية حية .. وهذا صحيح نظريا .. ولكن إذا أصيب إنسان فى حادث .. وبترت قدماه مثلا .. فهل انفصل جزء من روحه .. أم أن الروح باقية فى جميع أجزاء الجسم تؤدى وظيفتها كاملة .. الذى انفصل وتم بتره هو الأداة التى تقوم بالعمل .. أما الروح نفسها فما زالت باقية تعطى وتهب الحياة للجسم .. والدليل على ذلك أنها عندما تخرج يموت الإنسان .. فيتوقف كلية عن كل وظائف الحياة .

إذن فتحديد مكان الروح بالضبط .. لا يمكن أن يصل إليه أدق العلماء .. لأن آثارها والدليل عليها موجود فى كل أجزاء الجسم .. ولكن وجودها لا يعطينا علما عنها .. وهذه هى المعجزة .. فها هى الروح .. ظاهرة أمامنا فى كل جسد .. ولكن إنسانا لن يستطيع أن يخرج روحا من جسد .. ويقول هذه هى الروح .. أنظروا .. هى التى كانت تحرك هذا الجسد كله .. أو يعيد ادخال الروح إلى جسد تكون قد خرجت منه .. وهنا رغم ظهور آثار الروح تماما .. فإن السر مخفى عنا .

نصل بذلك إلى أن الروح هى التى تدير الجسم .. وتعطيه الحركة والحياة .. والحس .. ظاهرة آثارها .. ولكن بالله عليك ما شكلها .. هل رأيتها .. هل سمعتها .. هل لمستها .. إنها فى كل وسيلة من وسائل الحس .. ولكنك مع كل وسائل الحس عاجز عن ادراكها .. فإذا تحدث الله سبحانه وتعالى عن

الكون .. وحركته .. وما لا تراه فيه .. فلا تنظر إلى هذا القول .. بالتعجب .. لأن عنصرا خلقه الله سبحانه وتعالى .. وأدخله فى جسدك .. ثم جعله لا يدخل فى علمك .. أو فى نظام حسك .. أو قدرة رؤيتك .. فإذا كان مخلوق من مخلوقات الله .. وهوا لروح .. لا يدخل فى نطاق رؤيتك .. فكيف يكون الخالق سبحانه وتعالى .

إذن فقسم الله سبحانه وتعالى بالخنس .. الكواكب التى تطلع من أماكنها .. « والجوار الكنس » .

أى المكان الذى يأوى اليه الظبى .. أو الحيوان .. والذى قد تمر عليه .. وهناك ظبى فيه .. وأنت لا تدرى ولا تعلم .. ولكن لأن هذا أخفى عليك .. ليس معناه أنه غير موجود .. بل معناه أن علمك لا يصل إليه .. ثم يجىء بعدها ..

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ ﴾

سورة التكوير

« والليل إذا عسعس » معناها أنه اشتد ظلامه .. ومعنى ذلك أن أولئك الذين ينكرون هذا إنما يعيشون فى جهل له ظلام دامس مثل الليل تماما .. فهم لا يرون شيئا .. لأن الظلام الذى وضعوه حول أنفسهم يقصر كل حياتهم على الماديات التى يرونها .. هذا الظلام قد حجب عن أنفسهم نور الإيمان الذى كان يقودهم إلى الحقائق .. ولف الشىء بالظلمة .. والظلمة الشديدة .. هو اخفاء له عن النظر دون اختفائه من الوجود .. فالعلاقة هنا بين النجوم .. وظلمة الليل .. والبيت الذى يختفى فيه الظبى أو الحيوان .. تأتى فى معنى واحد .. وهو وجود الشىء رغم عدم علمك به ..

ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

« والصبح إذا تنفس » .

وهذه معجزة الحياة فى الكون . . ولقد ثبت أن الكون كله يتنفس مع الصبح . . تأتى ملايين الأشجار فى الكون . . فتأخذ الهواء الفاسد . . وتعطى الأوكسجين اللازم لحياة البشر . . الحياة الصحيحة . . ولذلك فكلما ابتعد الإنسان عن المدينة . . والتلوث الذى يحدثه الكون . . وذهب إلى مكان فيه حدائق وأشجار . . كان ذلك أجدى لصحته وأحسن . . لأنه سيعيش فى جو من الأوكجسين النقى . . الذى يخرج من هذه الأشجار كل صباح فكأنه سيعيش حياة تملؤها الصحة . . والناس حريصون على أن يحيطوا منازلهم والأماكن التى يعيشون فيها بالأشجار والحدائق لهذا السبب . .

والصبح عندما يتنفس يكون أنقى ، الأوكسجين قد انطلق إلى الدنيا . . ثم تبدأ الحياة . . ووسائل المواصلات والمصانع . . وكل ما فعله الإنسان لتفسد جمال ما خلقه الله فى حياة للبشر .

والصبح إذا تنفس . . أى أن له حياة . . فكأن الصبح من وطأة ظلمة الليل الشديدة . . التى تخرج فيها يدك ولا تكاد تراها الظلمة . . مع علمك بوجود هذه اليد . . فانك لا ترى مكانها . . يأتى الصبح . . واشراق الضوء . . ليعطينا الهواء النقى للتنفس . . وتخرج الأشجار والنباتات الأوكسجين صالحا نقيا . . لأن يتنفس به الإنسان . . فالكون فى الصبح فى ذلك الوقت يبدأ التنفس .

وإذا أردنا أن نضع المعنى متكاملا . . فالله سبحانه وتعالى قد أخبرنا عن أشياء ستحدث يوم القيامة . . ثم قال لنا ان عدم علمكم بها لا ينفى وجودها . . وأنها ستحدث . . وأضاف أن علم الإنسان قاصر . . كظلمة الليل تختفى بعض الأشياء فيها . . فلا تتبينها العين رغم وجودها . . وإن هذا القرآن هو الصبح الذى يريك كل شىء بوضوح . . وهو كعملية التنفس التى تتم على الأرض لأنه يدلك على طريق الحياة الطيبة الآمنة . . ولكن لماذا اختار الله سبحانه وتعالى هذا المثل . . إننا سنكمل الحديث فى الفصل القادم .



الفصل الثانى

قوانين الكون والإنسان

الدنيا كلها بجميع قدراتها . . وعلومها وتقدمها . . لا تصل إلى ذرة فى علم الله سبحانه وتعالى . . ومن هنا فإن ما يقوله الله ليس محتاجا إلى تأكيد . . لأن قول الحق أكبر من أى تأكيد . . وغير المؤمن يحاول دائما أن يدخل الشك إلى القلب المؤمن بكلمة كيف . . ذلك أنه فيما تتناوله الآية الكريمة من علامات القيامة يحاول الإنسان أن يثير الجدل حولها بكلمة كيف . . كيف سيحدث هذا ؟ .

والعلم الحديث يكشف لنا عن أشياء . . ولكنه لا يستطيع أن يفسر لنا أشياء كثيرة تحدث فى الكون . . والقانون الذى يربط الإنسان وهو نائم بالكون . . غير القانون الذى يربطه وهو مستيقظ . . أنه عندما يكون منتبها متيقظا . . تحكمه قوانين معينة . . فيرى بعينيه . . ويسمع بأذنيه . . ويمشى بقدميه . . ويعيش حياته العادية . . فإذا نام . . رأى وعيناه مغمضتان . . ومشى وقدماه لا تتحركان . . وحدثت له أشياء لا يمكن أن تحدث له فى الدنيا . . ولا تخضع لمنطق العقل . . وذلك يتم دون أن يستطيع العلم أن يحدد لنا كيف . . أو يكشف لنا كيف تتغير علاقة الإنسان بالكون . . وتتغير كل القوانين التى تربطه به . . وقد سألت صديقى العالم إذا كان الإنسان يرى بعينيه . . فكيف يرى وهو نائم مغمض العينين . . وإذا كان الإنسان يمشى بقدميه . . فكيف يمشى ويجرى فى الحلم وقدماه راقدتان فوق السرير . . سألته لأنه دائما يريد أن يعرف كيف .

وقلت أن الأحاسيس التى تربط الإنسان بالكون وهو مستيقظ . . تربطه وهو نائم . . ومع الأحاسيس بالشعور . . فإذا رأى حلما يحزنه . . قام والدموع فى عينيه . . وإذا رأى حلما يبهجه . . قام والبسمة على شفتيه . . وإذا رأى حلما يفزعه قام فزعا .

إذن فهناك قانونان مختلفان يتحكمان فى الإنسان . . أحدهما يخضع له وهو مستيقظ . . وهذا يدرسه العلم ويقترب منه . . ومن بعض حقائقه . . والقانون

الثانى يخضع له نفس الإنسان وهو نائم . . وهو ما يحاول العلم أن يصل إليه ولكنه لا يستطيع . . وهناك قانون ثالث يحكم علاقة الإنسان بالكون بعد أن يموت . . ثم هناك قوانين ليوم القيامة . . كل قانون من هذه القوانين يحدد علاقة مختلفة تماما بين الإنسان وقوى الكون . . وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أراد أن يقرب إلى أذهاننا هذا . . فأرانا اختلاف علاقة الإنسان بالكون فى حالة النوم واليقظة . . فذلك رحمة من الله بعقولنا . . ذلك أن الله عندما ينبئنا عن قضية غيبية هى فوق قدرة العقل الإنسانى . . ولا يريد أن يكشفها له . . يعطينا بجانبها ما يبسطها لنا ويقربها من أذهاننا . .

على أن كلمة « كيف » . . تأتى دائما لتحاول تشكيك الإنسان المؤمن أو احراجه وسط الذين يدعون العلم . . وينكرون الإيمان . . فهو يريد أن يعرف كيف خلق الله الكون . . وكيف يبعث الله الناس يوم القيامة . . إلى آخر هذا الكلام الذى يقال .

والحقيقة ان استخدام كلمة كيف هنا ضد العلم البشرى . . وضد القوانين البشرية . . وكل قوانين الدنيا . . ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد شاء أن يكشف للإنسان عن أشياء فى الكون . . ويخفى عنه أشياء أخرى . . هذه مشيئة الله . . وتلك حكمة أرادها الله ليمتحن من يؤمن بالغيب . . ومن يكفر . . ولكن الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شىء . . ومن هنا فإنك حينما تقول كيف فى أشياء غيبية . . لا تستطيع أن تصل إليها بالعلم البشرى . . أى فى داخل المعمل وبتجارب معملية . . وحينما تكون كيف هذه عن قدرة الله سبحانه وتعالى . . وقوة الله سبحانه وتعالى . . فإنك هنا تنكر كلمة لا إله إلا الله . . لماذا ؟

لأنك تقول كيف حينما يكون الإنسان متساويا مع من يناقشه . . بمعنى انى وأنا لم أدرس الطب . . لا أستطيع أن أناقش الطبيب . . وإذا لم أدرس الفلك مثلا . . لا أستطيع أن أناقش عالم الفلك فى حركة النجوم والكواكب . . تلك

حقيقة كونية لا يستطيع أحد أن ينكرها . . عندما أقول كلمة كيف . . لابد أن يكون العلم متساويا . . والعقل متساويا . . أو قريبا على الأقل . . فكلمة كيف لا تقال فى حياتنا البشرية إلا بين عقلين متساويين فى العلم . . ومن منا نحن البشر يستطيع أن يتساوى فى علمه مع الله سبحانه وتعالى . . لا يمكن أن أنزل إلى الشارع . . وآتى بإنسان لم يقرأ كلمة فى حياته . . بل لا يعرف القراءة والكتابة . . ثم أتناقش معه فى كيف أعالج مريضا . . أو كيف ابنى عقلا الكترونيا . . أو كيف أصل إلى الكواكب . . أو فى نسبية الزمن . . كل هذا خارج عن نطاق علمه . . وبالتالى فإنه يجهله . . وأى نقاش فيه هو نوع من الجنون . . والغاء للعقل . . وسيقول عنى العلماء . . ومنهم من كنت أتناقش معهم . . انى رجل مجنون . . كيف تشعر إذا قرأت اعلانا عن مناقشة تجرى بين اينشتين مثلا . . وأحد سكان الغابات عن كيفية التفجير الذرى أو النووى . . أو غزو الفضاء . . هل يسمح العقل البشرى بهذه المناقشة . . وهل يمكن أن تحدث . . وهل يجتمع علماء الأرض ليروا أو يستفيدوا من النقاش الذى يجرى بين رجل الغابة . . وبين اينشتين حول غزو الفضاء . . وما سيضيفه هذا النقاش من علم للبشر وللبشرية .

أظن أن هذا مستحيل . . وأن مناقشة مثل ذلك ستثير سخرية العالم . .

ولكن للأسف الشديد فإن ما ينكره العلماء على غيرهم من البشر بالنسبة للعلم . . يستبيحونه بالنسبة لله سبحانه وتعالى . . وهم يريدون أن يناقشوا كيف خلق الله . . وهم يريدون أن يناقشوا الموت والبعث . . والجنة والنار . . وتلك غيبيات إيمانية أبقاها الله فى علم الغيب عنده . . ولم يطلع عليها أحدا من خلقه . . ومن هنا فإنه لا يمكن النقاش فيها . . لأن هذا النقاش لن يوصلنا إلى علم . . وإذا كان الفارق بين رجل تربّى فى الغابة وبين اينشتين هو مائة درجة . . فالفارق بين علم أكبر علماء الأرض . . وبين علم الله هو بلايين البلايين من الدرجات التى لا تعد ولا تحصى . . فالله ليس كمثله شىء . . والله

سبحانه وتعالى لا يصل لذرة من علمه أحد . . ولذلك قال الله فى قرآنه الكريم :

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

سورة الإسراء

علم الله . . والإيمان

انى أستطيع أن أناقش . . أن أدرس ظواهر الكون . . تلك التى أستطيع أن أدخلها فى المعمل . . وأجرى عليها تجارب بعيدة عن نظريات الهوى . . أو الكلام الذى يقال بلا دليل . . ولكن كل شيء غيبى عنا هو علم الله . . وهو يدخل فى قضية الإيمان . . ولا يدخل فى قضية العلم . . فإذا كان الله قد أرانا آياته فى الأرض . . وبين لنا فى كتابه العزيز قوانين الكون قبل أن تكتشف بمئات السنين . . بل وبألوف السنين . . ليدلنا على أنه الخالق . . فإن ذلك يكون كافيا جدا لقضية الإيمان . . أما من يريدون أن يضعوا قدراتهم . . مثل قدرة الله سبحانه وتعالى . . فيقولون كيف . . هم بذلك يحاولون أن يضعوا قدرة عقولهم فى كفة متساوية . . مع قدرة الله سبحانه وتعالى . وهذا مرفوض تماما .

ولكن صديقى العالم لم يكتف بهذا الكلام . . بل قال:كيف يكلم الله الناس فى يوم القيامة . . هذه الألوف من اللهجات . . وهذه الألوف من اللغات . . كيف يكلمها الله فى فترة واحدة . . ودفعة واحدة . . ونسى الآية الكريمة التى تقول :

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾

سورةالروم

أى أن اختلاف اللهجات هو آية من آيات الله سبحانه وتعالى . . والله هو

الذى منح الإنسان نعمة الكلام . . وعلم اللغة تصديقا لقوله تعالى :
« وعلّم آدم الأسماء كلها » .

والله حين أرسل الرسل . . أرسلهم بلغة أقوامهم . . وكان لابد لكى ينتقل العلم من إنسان إلى إنسان . . ومن جيل إلى جيل . . وإن ترث البشرية الحضارة . . أن تكون هناك لغة . . بل أن الله سبحانه وتعالى يقول :
« فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه »

أى أن الكلام لآدم علمه الله سبحانه وتعالى . . ثم علم آدم حواء . . ثم بدأت اللغة فى البشرية كلها . . ومن هنا فإن هذه آية من آيات الله . . خص بها الإنسان . . وميزه بها . . ووهبها له . . وإذا كانت اللغة هبة من هبات الله للإنسان . . فإذا كل فرد منا يفهم اللغة التى أراد له الله أن يتحدث بها .

ولقد أراد الله أن ينبئنا أن اللغة هبة من عنده . . وليست وراثة . . وليست خاضعة لأقوام دون أقوام . . ولا هى حسب الجنس . . فإذا أتينا بطفل صغير من أوربا . . ووضعناه فى بلد تتكلم اللغة العربية . . فإنه ينشأ وهو يتحدث اللغة العربية . . رغم أنها ليست لغة آبائه وأجداده . . والعكس صحيح بالنسبة لطفل عربى يوضع فى مجتمع أجنبى . . هذه الحقيقة وضعها الله ليؤكد لنا أن اللغة ليست وراثة . . وهو لم يختص بها قوما معينين . . بحيث إذا أتيت بطفل انجليزى . . فإنه يتحدث باللغة الانجليزية مهما كانت البيئة التى ينشأ فيها . . وإذا أتيت بطفل عربى . . فإنه يتحدث اللغة العربية مهما كانت البيئة التى ينشأ فيها . . ولكن ما تسمعه الأذن يحكيه اللسان . . واللغة تعلمنا أنه لا جدوى أبدا من النطق بألفاظ لها مدلول ومعنى إلا إذا كانت قد سمعت أولا . . فلو انك أتيت بشخص أجنبى لم يسمع اللغة العربية . . ونطقت أمامه ألفاظا عربية . . فإنه لا يفهم شيئا . . وكذلك بالنسبة للعربى الذى تنطق أمامه ألفاظا غير عربية . . فإنه لا يفهم أيضا .

نعود بعد ذلك إلى بداية العالم . . إذا كان العالم قد ابتدأ من ذكر وأنثى . . كما دللنا على ذلك . . كيف تفاهما . . لابد أنهما سمعا شيئا اعتادت عليه آذانهما . . فنطق به لسانهما . . وتكلما به . . ولكن كيف سمعا وهما الأول والبداية . . وممن سمعا . . إذن لابد أن يكون هناك سمع ليس من جنسيهما . . لأن الأصل . . فى الجنس البشرى أنه من لا يسمع لا ينطق . . كما نعرف جميعا . . إذن لابد أن يكون قد علمهما معلم آخر . . إذن فالإيمان بوجود الله ضرورة لغوية . . لأنه لابد أن الله سبحانه وتعالى قد كلم آدم فسمع . . وكلم آدم حواء فسمعت . . وبدأت اللغة لغة التخاطب والتفاهم نقلا عما علمهما الله .

هذا واقع مادامت هذه الإنسانية كلها قد بدأت من ذكر وأنثى وكان بين هذا الذكر وهذه الأنثى تفاهم . . فلابد أنهما سمعا الكلام .

وهنا يأتى قول الله سبحانه وتعالى :

« وعلم آدم الأسماء كلها »

ليشرح لنا ما حدث . . فالله سبحانه وتعالى علم آدم الأسماء . . أى اللغة التى يتحدث بها ويتفاهم بها . . ويتكلم بها . . ومن معجزات القرآن أن ذلك لا يزال هو المتبع حتى الآن رغم مرور هذا الوقت الطويل . . وهذا التقدم العلمى الضخم فى العالم . . فنحن الآن حين نريد أن نعلم طفلا أن يتكلم فأننا نبدأ بأن نعلمه الأسماء . . ولا نبدأ بأن نعلمه الأحداث . . أو أى شيء آخر . . إنما نعلمه الأسماء أولا . . أول شيء نقول له هذا قلم . . وهذه كراسة . . وهذا أسد . . وهذا كوب . . وهذا طعام . . وهذا طريق . . وهذا نور . . وهذا ظلام . . نعلمه الأسماء أولا . . وبعد أن يتعلم الأسماء تصبح الاشتقاقات من الأسماء . . وأخذ الأحداث منها عملية سهلة . . إذن عندما يقول الله سبحانه وتعالى :

« وعلم آدم الأسماء كلها »

فيجب أن نعرف أن الله قد علم آدم لغة الكلام أولا . . وأن لغة الكلام حتى عصرنا هذا تبدأ بتعليم الأسماء كما أخبرنا الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم .

فإذا كان الله سبحانه وتعالى هو الذى علم الإنسان اللغة التى يتكلمها . . ألا يستطيع أن يخاطبه بكل لغة علمها . . أو عرفها له . . ألا يمكن أن يتم هذا الخطاب فى وقت واحد ؟ . . العقل والمنطق والمدلول يقول نعم . . لماذا لأننا عرفنا بالدليل أن القوانين التى يخضع لها الإنسان متغيرة .

قوانين النوم . . غير قوانين اليقظة . . وقوانين الجسد . . غير قوانين الروح . . وهناك قوانين نعرفها . . وهى قوانين الإنسان فى اليقظة . . لأننا نتعامل معها فى الحياة . . ولكن هناك قوانين لا نعرفها ونجهلها تماما رغم أننا نعيشها . . وهى القوانين التى يخضع لها الإنسان وهو نائم . . فلا يستطيع أحد أن يفسر لنا هذه القوانين . . على سبيل الجزم . . إنما هناك نظريات بلا دليل . . فالعلم فى المادة التى تدخل المعمل . . قد يصل إلى علم يقينى . . ولكن فيما وراء المادة . . فإنها نظريات بلا دليل . . وعلى أية حال . . إذا كان العلم عاجزا عن أن يفسر لنا قانون الإنسان وهو نائم . . فكيف يريد أن يفسر لنا قانون الإنسان فى الآخرة .

والله سبحانه وتعالى حين كشف لنا من علم . . كشف لنا أن قانون قدراتنا موجود فى الكون . . فالبصر له حدود معينة يقف عندها .
. . فأنت لا تستطيع مثلا إذا نظرت بعينيك أن ترى ماذا يحدث فى قرية بعيدة . . أو فوق القمر . . ولكنك بواسطة عدسات تليفزيونية خاصة يدخل ذلك فى قدرتك البشرية . . أو فى قدرة عينيك على الأصح . . لأنك إذا كنت لا تبصر . . فلا أحد يستطيع أن يدخل شيئا فى قدرة إبصارك . . فالإنسان الأعمى لا يستطيع أن يستفيد من الامكانيات البشرية التى قد يعطيها العلم

للبصر كتكبيرالأشياء مثلا ملايين المرات . . ورؤية ماذا يحدث فوق القمر بواسطة عدسات تليفزيونية . . كل هذا هو للمبصر وحده . . وكما يقال عن التليفزيون . . يقال عن الاذاعة . . فأنت تستطيع أن تسمع إنسانا يتحدث فى أمريكا . . أو فى أى مكان فى العالم . . بواسطة استخدام الأثير . . ولكن فاقد السمع مهما قدمت له . . لا يستطيع أن يستفيد من ذلك .

إذن . . فهناك قوانين يخضع لها البشر . . فى اليقظة والحياة العادية . . وهذه القوانين هى خليط مما كشفه الله للإنسان من علم . . وما خلقه الله له من حواس يستقبل بها هذا العلم .

عندما نتحدث لمن رحلوا عنا

على أنه عندما ينام الإنسان . . يخضع لقوانين أخرى بعيدة تماما عن قوانين الحياة . . فهو يرى أشياء وأماكن لم يرها فى حياته . . وربما ليس لها وجود فى الدنيا . . وهو يفعل أشياء لا تنطبق عليها قوانين الأرض . . كأن يقفز من جبل عال . . وينزل إلى الأرض سليما . . بل أنه أكثر من ذلك أحيانا يرى أولئك الذين رحلوا عن هذه الدنيا من أسرته . . ويتحدث إليهم ويكلمهم . . وهو أحيانا فى أحلامه يبكى . . وأحيانا يضحك . . وأحيانا يقوم منزعجا . . وأحيانا يقوم مسرورا . . فكيف يمكن أن يحدث هذا كله للإنسان . . مع أنه نائم . . كيف يمكن أن يرى وعيناه مغمضتان . . مع أننا لو وضعنا عصابة على عينيه فى اليقظة . . لا يستطيع أن يبصر . . كيف يمكن أن يحس ويشعر . . ويتعذب ويتألم . . ومن أين تأتى هذه الأماكن العجيبة التى يراها . . والتى لا وجود لها فى الدنيا . . والعلم عاجز حتى الآن عن أن يعرف كيف يرى الإنسان وهو نائم وعيناه مغمضتان . . وكيف يمشى ويجرى وهو على السرير قدماه لا تتحركان . . إذن فقوانين الكون التى يخضع لها البشر خلال اليقظة تختلف تماما عن تلك التى يخضع لها خلال النوم . . مع أن الفرق بينهما دقائق . . فإذا أخذنا نحن قوانين

اليقظة وحدها . . على أنها القوانين التى تحكم البشر. . وتركنا قوانين الكون التى نعيشها جميعا . . فإننا نجد أنفسنا قد تركنا جزءا هاما من حياة الإنسان . . وإذا نحن أخذها بكلمة كيف . . فإننا نجد أنفسنا عاجزين عن أن نقدم تفسيرا علميا واضحا لما يحدث . . والجواب هنا أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يرينا يقينا أن علمنا قاصرا حتى نتخلى ـ فى قضايا الغيب التى هى أكبر من قدراتنا ـ عن كلمة كيف . . ونعرف أننا فى حياتنا نخضع لقوانين لا نستطيع تفسيرها . . مع أننا نراها يقينا . . ومن هذا المنطق . . فإن الإيمان ليس رأى العين . . ذلك أن رأى العين لا تدخل فى العقل الإيمانى . . فأنا حينما أراك وأتحدث إليك . . لا أقول انى أؤمن بأنى أراك . . لأننى أراك فعلا . . ولكنى حينما أؤمن . . فأننى أناقش القضية حتى يقتنع بها عقلى . . وحينئذ يصبح الإيمان بما هو غيب عن هذا العقل . . قياسا على ما هو واقع . . وبعد فكر ودراسة ومناقشة . . لكل ما أعطاه الله سبحانه وتعالى لنا من شواهد تقودنا إلى الإيمان . . ولذلك يبدأ القرآن الكريم فى سورة البقرة بقوله تعالى :

﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ ﴾

سورة آل عمران

أى أن الإيمان بالغيب أساس من أسس العقيدة . . وحيث أنك لا ترى الغيب . . فإن الله سبحانه وتعالى قد وضع لنا ما يقربه إلى عقولنا بحيث يدخل الإيمان إلى القلب . . ولا يصبح الغيب محل المناقشة . . فحين يقول الله سبحانه وتعالى أن كل شىء يوم القيامة سيتغير ويتبدل . . فإن هذاالكلام مادام صادرا عن الله سبحانه وتعالى . . فيكفى مصدره وصدوره عن الله . . ليصبح يقينا دون أية اضافات أخرى .

داخل النفس البشرية

وهناك فى حياتنا أشياء نستطيع أن نحسها ونراها . . ولكن هناك أشياء لا نراها ونحسها . . فالاحساس بالجوع والحب والكره . . أشياء لا تنطبق عليها الرؤية . . ولكنها مع ذلك غرائز وضعت فينا . . وموجودة داخل النفس البشرية . . والحقيقة أن الإلهام والشعور داخل النفس البشرية . . يوجد قبل إحساس هذه النفس بما حولها من العالم . . تلك سنة الخلق . . فالطفل الصغير قبل أن يتصل بالعالم الخارجى . . أو بعد ولادته بساعات . . أو أيام . . يحس بالجوع والعطش . . والألم . . ويعبر عنها بالبكاء . . ويحس بالحنان والدفء . . والحب والكره . . والقسوة والرحمة . . كل هذه الأشياء توجد فى داخل النفس البشرية . . مع دقات الحياة الأولى . . بينما الحواس قد تنتظر أسابيع أو شهورا . . قبل أن تستطيع أن تؤدى مهمتها بشكل يمكن أن يعبر عنه الطفل .

وإذا درسنا النفس البشرية . . وإحساساتها الداخلية . . نجد أن قواها هى إحساس الإنسان بوجود الله . . هذا الإحساس الذى يفتقر فى بداية حياتنا إلى شيء من الدقة بالنسبة لعظمة الله وقدرته . . والكون ووجوده . . ولكنه يؤكد ويحس بوجود الخالق سبحانه وتعالى .

وأحب أن أوضح هذه النقطة قليلا . . إن النفس البشرية التى فيها أحاسيس لم يستطع أحد أن يحللها بدقة . . ولا نستطيع نحن أن نصل إليها . . هذه النفس تحس يقينا بوجود الله سبحانه وتعالى . . فاسم الله مثلا . . هو شيء لا تدركه الحواس الخمس . . ولا يدركه العقل البشرى . . لأنه أكبر من كل هذه القدرات . . ولكن تدركه حاسة داخل النفس . . حاسة غير مرئية . . ومن هنا فإننا إذا ذكرنا كلمة الله سبحانه وتعالى . . نجد أن الأذن تفهمها . . وأن النفس تجد بينها وبين الله ألفه . . ولا يمكن للأذن أن تفهم شيئا لا يوجد أصلا داخل النفس البشرية . . ذلك أنه لابد من وجود التصور أولا داخل النفس . .

حتى تألف الشيء . . ويستطيع أن يصل إلى العقل . . ومن هنا فإنك إذا حدثت إنسانا عن شيء لم يره . . ولم يسمع به فى حياته . . تجده لا يفهم . . خصوصا إذا ذكرت اللفظ دون شرح . . فأنت إذا قلت ناطحة سحاب مثلا . . أو مركبة فضاء . . أو حتى الأشياء البسيطة مثل كلمة بحيرة . . دون أن يكون الإنسان قد رأى فعلا هذا الشيء سواء رؤية مباشرة . . أو عن طريق التعلم . . فإنه لا يفهم . . ويسأل ما معنى هذا . . وتستطيع أن تجرب مع أطفالك بأن تخبرهم عن أشياء لم يروها . . ولم يعرفوا عنها شيئا . . وتذكر أمامهم مجرد الاسم . . حينئذ سترتسم على الوجوه علامة استفهام ضخمة . . ان من أمامك لا يفهم . . ولكن عندما تذكر اسم الله . . تجد كل نفس تدركه . . رغم أن أحدا لم يره . . ولم يستطع أن يصل بقدرة عقله إليه . .

ما معنى هذا . . معناه أن الله فينا بالفطرة . . أننا نحس بوجود الله فى داخلنا . . وان هذا اللفظ ليس غريبا علينا . . كيف يكون الاسم مألوف . . وهو خارج نطاق العقل . . بعض الناس يسميها الفطرة . . والبعض يسميها الالهام أو الشعور . . ومهما كانت التسمية فإن الحقيقة تبقى فى أن النفس البشرية تألف وتفهم اسم الله سبحانه وتعالى لمجرد ذكره . . وأنها تجد تألفا مع هذا الاسم . . وشعورا داخليا يؤكد قدرة الله سبحانه وتعالى ووجوده .

ولكن العالم المادى الذى نعيش فيه . . لا يمكن أن يخلق فينا هذا الشعور . . وذلك يخبرنا به الله سبحانه وتعالى فى قوله :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾

سورة الأعراف

فمسألة الربوبية لا يختلف عليها أحد . . بل ان الإنسان منذ فجر التاريخ

وهو يبحث عما وراء المادة بطرقه المختلفة . . ولقد حاول بعض البشر أن يعبروا عن هذه القوة بأشياء استندوا فيها إلى عقولهم ، والتزم البعض الآخر بالرسالات السماوية التى أرسلها الله للبشر . . ليخبرهم عما يريدهم أن يعلموه بالنسبة للكون . . ومنهج الحياة . . وطريقة عبادة الله . . ولكن هؤلاء . . يحسون أن هناك قوة وراء هذا العالم . . وهى قوة عظيمة خارقة . . وهناك شعور داخلى فى كل نفس بشرية . . يجعلها تدرك أو تفهم أن العالم المادى الذى تراه لا يمكن ألا أن تكون وراءه قوة خارقة . . قادرة منظمة قوية .

على أن هناك مرحلة أخرى أحب أن أسجلها . . هى أن الإنسان حين يصل إلى مرحلة التفكير فى وجود الله . . باستخدام العقل البشرى . . لابد أن تكون قد مرت فترة من عمره حتى ينضج ويكون قد تجاوز سن العشرين أو الثلاثين . . ولكننا نجد الطفل الصغير يعبد الله . . والعقل البسيط الذى لم يقرأ كتابا واحدا يعرف أن الله موجود . . والإنسان الدارس والفيلسوف يعرف بوجود الله . . كل العقول تتفاوت فى الفهم . . وربما تتفاوت فى المنطق . . وفى أشياء كثيرة . .

ولكنها بكل ثقافاتها وفهمها سواء كانت بسيطا أو عميقا تعبد الله . . دون أن تحس أن هناك تناقضا بين وجود الخالق سبحانه وتعالى . . والكون الذى نعيش فيه . . بل أن أكثرهم يحسون بانسجام فطرى غريب . . بأن الله سبحانه وتعالى ووجود الكون حقيقيان داخل النفس . . ليس بينهما أى تناقض . . وإذا كان يوجد داخل أنفسنا ما يؤكد وجود الله سبحانه وتعالى . . وإذا كان كل من يحاول أن يحجب وجود الله ، يفهم هو معنى هذه الكلمة التى يناقشاها . . والتى يحاول أن ينكرها ليكون الهوى البشرى هو أساس المجتمع كله فإن وجود الله فيها بالفطرة . . وفهمنا جميعا لاسم الله الذى فوق قدرة العقل والاحساس . . والمناقشات التى تتم إنما هى كلها تأكيد بأن الله سبحانه وتعالى موجود . . وأنه قادر على أن يغير هذا العالم عندما يريد ويأتى كل إنسان إلى الآخرة ليواجه حسابه .

ما معنى القسم ولماذا . . ؟

. . نأتى بعد ذلك إلى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾

سورة التكوير

هذا هو الذى أقسم به الله سبحانه وتعالى فى بداية السورة . . فما معنى هذا القسم . . ؟

. . الله سبحانه وتعالى يبين لنا فى السورة أشياء هى غيبيات عنا . . لا يستطيع أن يدركها العقل البشرى إلا بالإيمان . . وفوق أن هذه الأشياء غيبيات عنا . . أى نحن لا نراها الآن . . ولكنها ستحدث فى المستقبل . . بل أنها فوق ذلك كله . . أكبر من القدرة البشرية . . بمعنى أنه ليس فى قدرة إنسان أن يفجر البحار . . أو يوقف أشعة الشمس . . أو يزيل الجبال . . ويبدل الأرض ويغير النجوم إلى آخر ما أنبأنا به الله من علامات الساعة . . هذه الأشياء إذا نسبت إلى القوة البشرية . . فإنه من الصعب تصديقها . . ولكنها إذا نسبت إلى قوة الله سبحانه وتعالى أصبح من الممكن أن تحدث . . ولذلك فنحن لسنا أمام أمر محجوب عنا فقط . . ولكننا أمام أمر لابد أن ينسب إلى قدرة الله . . لأنه لا أحد يستطيع أن يفعل ذلك إلا الله .

والصورة تعطى انقلابا عاما فى الكون . . ثورة فى الوجود . . تقضى على كل الأشياء التى اعتادها الناس . . وأصبحت نظاما رتيبا فى الكون . . وقانونا ثابتا محكما . . ثم تأتى فترة ينقلب فيها هذا كله . . ويتغير كل موجود . . إلا الله سبحانه وتعالى . . فالإنسان إذا أراد أن ينصرف إلى شىء فى هذا الوجود كله . . فلابد أن يرتبط بالوجود المطلق الذى لا يتغير . . وهو الله . . أما كل مخلوق

سوى الله . . فإنه سيتعرض للفناء مهما بدا ساكنا مستقرا أبديا . . ولذلك فإن الله حين أقسم يأتى القسم من الله سبحانه وتعالى . . وهو الوحيد الباقى . . وألا يأتى من أى شيء سيلحقه الفناء . . هذا أول أهداف القسم . . أما الهدف الثانى . . فهو بيان الوسيلة التى يتحقق بها للإنسان المؤمن النجاة من كل هذا . . والوصول إلى الحياة الخالدة الباقية . . وهذه الوسيلة هى اتباع منهج الله . ومنهج الله لا يمكن للعقل أن يبتكره . . لأن كل عقل . . وكل نفس لها هوى . . وهذا الهوى . . أو الغرض يدخل فى كل ما تقوم به هذه النفس من اعداد أو تصوير لمنهج الحياة . . وأنت إذا أردت أن تعرف . . هل هذا المنهج من الله سبحانه وتعالى . . أو من صنع البشر . . فما عليك إلا أن تنظر إلى أولئك الذين يدعون إليه . . فالمنهج البشرى . . يضعه إنسان . . سواء كان مفكرا . . أو فيلسوفا . . أو سياسيا . . أو من رجال القانون . . المهم فى هذا كله . . أنه يضع هذا المنهج . . وتكون حوله مجموعة من الناس . . أيا كانوا . . وبأى شكل يدعون لتطبيق هذا المنهج . . أنظر إلى هؤلاء الناس . . إذا وجدت أنهم يستفيدون فائدة شخصية من تطبيق هذا المنهج . . بأن يزدادوا ثراء . . أو غنى أو نفوذا . . أو يمتلكوا شيئا . . فاعرف أن هذا منهج بشرى . . وضعه إنسان . . أو عدد من الناس لهم هوى أو غرض فى نفوسهم يريدون تحقيقه . . فإذا أخذنا الشيوعية مثلا . . وأردنا أن نطبق عليها هذه النظرية . . نجد أن أولئك الذين يدعون لهذا المنهج . . أو يقودونه سواء كانوا أعضاء للجنة المركزية . . أو أعضاء للمؤتمر العام للحزب . . نجد أنهم مميزون عن باقى الناس يحصلون على ميزات . . لا يحصل عليها أحد غيرهم . . وهم يعيشون عيشة الترف والبذخ . . بينما شعوبهم تقاسى وتعانى أشد المعاناة . . ولذلك حين نجد فائدة شخصية لمن يدعون لتطبيق هذا المنهج . . نقول أنه منهج وضع لتحقيق غرض معين . . أو منفعة خاصة لعدد محدود من الناس . . وإذا أخذنا النظام الديكتاتورى مثلا فى أى من بلاد الدنيا . . نجد أن أولئك الذين يحيطون بالحاكم . . مستفيدون . . أو هم أكثر الناس استفادة من هذا النظام . . حينئذ نحس ونعرف أن هذا النظام من وضع بشر . . ولكن حين يقول رسول الله صلى

الله عليه وسلم . . « إذا سرقت فاطمة بنت محمد . . لقطع محمد يدها » . . وحين يقف أبو بكر الصديق . . وهو يحكم بتعاليم الله . . ليقول : القوى منكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه . . والضعيف منكم قوى عندى حتى أخذ الحق له . . وحين يقول أيضا : « وليت عليكم ولست بخيركم . . فإن أصبت فأعينونى . . وإن أخطأت فقومونى » . . نعرف أن ذلك هو منهج الله . . لماذا ؟ . . لأنه لا يعطى ميزة لأى فرد من أولئك الذين يدعون إليه . . فإذا سرق أى إنسان أقيم عليه الحد . . وقطعت يده . . وإذا سرقت فاطمة بنت محمد رضى الله عنها . . يقام عليها الحد . . والذى يقيمه هو النبى والداعى . . فأى ميزة تلك هى التى حصل عليها . . بحيث تجعله يستفيد فوق سائر الذين يتبعونه . . وإذا جاء خليفة وحاكم . . وقال:إن القوى ضعيف حتى أخذ الحق منه . . والضعف قوى حتى آخذ الحق له . . أصبح مركز القوة الوحيد هو الحق وحده . . ولا توجد أى مراكز أخرى تستطيع أن تقف أمام الحق . . بل كل قوى يصبح ضعيفا حتى يؤخذ الحق منه . . وإذا كان الحق هو مركز القوة الوحيد فى الحكم الاسلامى . . انتهى الهوى تماما . . ولا يستطيع أى إنسان أن يحصل على ميزة . . بل أن المهاجرين فى أول الاسلام تركوا أموالهم . . وكل ما يملكونه من وسائل الترف والزينة والجاه . . والمال فى مكة . . وهاجروا إلى المدينة . . فكأنهم باتباعهم الدين الجديد لم يستفيدوا شيئا دنيويا . . بل تركوا أعز ما يملكون فى الدنيا فى سبيل المنهج . . والدعوة إليه . . وحيث تحس أن الإنسان يترك ما يملك . . فى سبيل منهج يتبعه ويدعو إليه . . ولا يستفيد شيئا . . فإنك تعرف أن هذا المنهج هو منهج الحق . . الذى لا يوجد فيه هوى . . ولا غرض دنيوى .

منهج البشر وكيف تعرفه ؟

ولكل إنسان ، مهما كان ، فى حياته هوى شخصى . . حتى ولو كان طفيفا . . فتلك هى الطبيعة البشرية . . ولكن الذى لا هوى له هو الله سبحانه وتعالى . . فهو غير محتاج لك . . ولا يريد منك شيئا . . وهو يعطيك

ولا يأخذ . . ولا يطمع فيما تملك . . ولا تستطيع أنت أن تنال من ملكه شيئا . . حتى يخافك أو يخشاك . . إذن فالتشريع هنا لا يتم عن هوى . . وإنما يتم عن حق وعدل . . فإذا زاد على ذلك . . مع أن علم الله لا يصل إليه بشر . . وحكمته فوق عقول الناس . . أصبح التشريع كاملا متكاملا . . والإيمان هنا هو إيمان بقدرة الخالق . . فمتى آمنت يصبح كل ما يصدر عن الله . . ولا تراه . . لأنه مخفى عنك . . أو لأنه سيحدث بعد فترة من الزمان . . أصبح كل هذا يقينا . . والذى يجب أن تتأكد منه فقط هو أنه صادر عن الله . . ومادام صادرا عن تلك القدرة الهائلة التى لا تحدها حدود . . ولا قيود . . فهى تستطيع أن تفعل ما تشاء . . وإيمانك يجعلنا نحس يقينا بأن ما يقوله الله سبحانه وتعالى هو الحق . . ولذلك جاء القسم . . جاء ليقول:إن كل هذه الأشياء التى أنبأتكم عنها مما سيحدث . . عندما تنتهى الحياة . . أو تأتى الساعة . . هى من الله وأن الذى أخبركم بها رسول كريم . . رسول لأن الله لا يخاطب البشر بالخطاب المباشر إلا فى الآخرة . . ومن هنا فلابد من رسول يختاره الله سبحانه وتعالى ليبلغ الرسالة أو المنهج . . وقد أتت الرسل على مر التاريخ تحمل تعاليم السماء إلى البشر . . وتصحح ما فسد من أن يصبح هوى النفس . . والغرض هو الحق . . وكريم بمعنى أنه معروف عندكم بكرم الخلق . . وقد كنتم تأتمنونه على كل غال ونفيس . . وحتى بعد أن أعلن الرسالة وبدأ الدعوة إلى الدين الجديد فأنت مازلتم تعترفون بكرم خلقه وتأتمنونه على كل غال ونفيس . . والدليل على ذلك أنه عندما هاجر رسول الله إلى المدينة . . كانت عنده ودائع من عدد من أهل مكة غير المسلمين . . تركوها عنده لكرم خلقه وأمانته . . وأنه كلف من يعيد إليهم هذه الودائع . . إذن فهو كريم وأمين بشهادة قومه قبل الرسالة . . وبعد الرسالة . . والله يقسم أنه كريم وأمين أيضا فى رسالته . . وأمين فى تبليغ هذه الرسالة كما أنزلها الله سبحانه وتعالى . . فالقسم هنا جاء عن أشياء تدخل فى قدرة الله وحده . . ولذلك لابد من تأكيد من الله . . بأنها ستحدث . . والقسم يأتى بأن البلاغ صحيح . . وأن الرسول الذى يقوم بالبلاغ معروف بكرم الخلق . . قبل أن يعهد إليه بالرسالة . . بشهادتكم جميعا . . وأنه

بعد أن أوحيت إليه الرسالة كريم أيضا . . بمعنى أنه سخى فى العطاء . .
لا يؤدى ما طلب منه فقط . . ولكنه يزيد على ذلك حبا فى الله . . وعشقا لمنهج
الله . . فالرسول وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . . يقوم الليل كله . .
ويصلى حتى تتورم قدماه . . ويؤدى فوق ما طلب منه . . ويلزم نفسه بأشياء لم
يلزم الله بها . . ولكنه يقوم بها تطوعا . . مع ما فيها من مشقة على النفس . .
إذن فهو ليس فقط مبلغا ورسولا . . بل هو محب للمنهج . . كريم فى أداء
ما طلبه الله منه . . إلى درجة ارهاق النفس لإرضاء الله .

هل هو محمد . . أم جبريل ؟

ثم يقول الله سبحانه وتعالى :
« ذى قوة عند ذى العرش مكين » . .

والله سبحانه وتعالى حين يقول قوة . . لا يعنى القوة البدنية . . ولكنه يعنى
قوةالنفس . . فقوة البدن هذه مسألة سهلة يستطيع كل انسان أن يصل إليها . .
ولكن قوة النفس هى الاختبار الحقيقى للرجال . . وقد قال رسول الله ليس
القوى بالصرعة . . ولكن القوى من يملك نفسه عند الغضب . . فالله سبحانه
وتعالى حين يصف نبيه بالقوة . . ليس معنى هذا أنه مصارع قوى . . أو معناه
الغلبة البدنية . . ولكنه قوى يقف وحده أمام الدنيا كلها . . ويرفض أن
يلين . . فإذا عرضوا عليه المال والذهب . . والحكم . . وكلها مغريات هائلة
للنفس . . استطاعت قوة نفسه أن تتغلب على هذا كله . . فيقول : « والله لو
وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر . . أو أهلك
دونه . . ما قبلت » . .

هذه هى القوة الحقيقية للنفس . . قوى وهو يواجه مع قلة ضعيفة ذليلة
جبروت قريش وإيذاءها دون أن يتراجع . . أو يصيبه الضعف أو الوهن . .

قوى وهو يخرج مع أبى بكر . . ويرى كفار قريش على باب الغار . . سيوفهم مشرعة . . فيقول لأبى بكر : ما ظنك باثنين الله ثالثهما . . ولا يخشى . . ولا يخاف شيئا . . قوى وهو يأخذ بدعوته إلى المدينة . . ويواجه المعركة تلو المعركة . . حتى إذا جمعت له قبائل العرب كلها . . واليهود فى المدينة ليقضوا على دينه ووجد نفس يواجه قوى هائلة . . لم يدخل الخوف إلى قلبه . . بل ظل ثابتا صامدا . . قويا فى الحق . . فعندما أتى على بن أبى طالب مع رجال يهودى ليقضى بينهما . . وجلس على إلى جوار الرسول . . قال له رسول الله : قم حتى أقضى بينكما . . قوى لأن الدنيا كلها لم تستطع أن تجرفه . . أو تشده إليها . . فيركن إلى الترف . . وإلى المسكن الفاخر .

هذه كلها وغيرها هى علامة قوة النفس الحقيقية . . ولذلك عندما كان أى إنسان له حق . . كان يرحب بأن يقضى الرسول بينه وبين خصمه . . وعندما يكون الإنسان عليه الحق . . كان يهرب من هذا القضاء . . لماذا ؟ . . لأنه يعرف أن قوة نفس الرسول ستجعل الحق وحده ينتصر دون أى شيء آخر مهما بلغ .

هذه هى القوة فى أمور الدنيا . . ولكن الآية الكريمة تقول : **« ذى قوة عند ذى العرش مكين »** . .

فما هى القوة عند الله سبحانه وتعالى . .

بعض المفسرين يقول : ان هذه الآيات فى وصف جبريل عليه السلام . . وأن الله سبحانه وتعالى . . أراد أن يعطينا ما هو غائب عنا . . وهو الرسول الذى اصطفاه الله سبحانه وتعالى من الملائكة ليبلغ إلى رسالة إلى محمد عليه الصلاة والسلام . . وأن الله سبحانه وتعالى أراد أن يؤكد لنا أن كلا الرسولين . . سواء ذلك الذى نزل بالقرآن إلى الأرض وهو جبريل . أو ذلك الذى أبلغه إلى البشر وهو محمد عليه الصلاة والسلام . . كلاهما أمين فى بلاغه . . وبعض المفسرين يقول : ان الله سبحانه وتعالى لا يحتاج لوصف

جبريل بالأمانة . . لأن جبريل مسير لا اختيار له . . فالملائكة يفعلون ما أمرهم الله . . وليس لهم اختيار فى أن يفعلوا شيئا أو لا يفعلوه . إنما الذى له اختيار فى ذلك هم البشر . . الذين حملهم الله الأمانة فقبلوها . . وأصبح لهم اختيارات . فهم يستطيعون قول الحق . . ويستطيعون إنكار الحق . . إلى آخر ما نعرفه من خيارات متاحة للبشر ، ولذلك فإن أمانة التبليغ هنا تأتى ردا على الكفار الذين يريدون أن يشككوا فى هذا الدين . . وتشكيكهم ينصب على أنه قول بشر . . أو قول شاعر . . أى أنه ليس منهج الله . . ومن هنا جاءت الآية لترد عليهم . . فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد اصطفى رسولا من البشر . . ورسولا من الملائكة . . فلا تعارض فى أن تنطبق أوصاف القوة والأمانة والكرم عليهما . .

والله سبحانه وتعالى يقول :

« ذى قوة عند ذى العرش مكين » . .

أى أنه ليس قويا فى الدنيا فقط . . ولكن ممكن عند ذى العرش . . له مكانة عليا عند الله سبحانه وتعالى . . ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

« مطاع ثَمَّ أمين » . .

قد يقول بعض الناس أن الرسول قد يتصف بالقوة والمكانة عند الله ولكن الناس الذين اتبعوه لا يطعيونه . . ولكن الله سبحانه وتعالى يقول لهم : أن أولئك الذين يتبعون هذا الدين لا يعصون الله ما أمرهم . . ويفعلون ما يؤمرون . . أى أن الذين يتبعون رسول الله يطيعونه ويفعلون ما أمرهم الله به . . ولكن لماذا التنويه هنا بالطاعة .

معنى الطاعة ؟

إذا أردنا أن نفسر ذلك . . فيجب أولا أن نفرق بين الطاعة وعدم الطاعة . . ولا نأخذ اللفظ على اطلاقه . . فالطاعة إما أن تكون فى أمور محببة إلى

النفس . . كأن يدعوك إنسان إلى أن تقضى فترة فى مكان جميل . . أو تؤدى عملا يعطيك مالا وفيرا بجهد قليل . . أو تسافر إلى بلد أنت تحب أن تسافر إليه . . أو قد يدعوك إلى طعام محبب إلى نفسك . . إلى آخر ما هو محبب إلى النفس البشرية . . حينئذ تكون الطاعة سهلة ومحببة إلى النفس . . ولكن عندما يدعوك الإنسان إلى مشقة تتحملها نفسك ، حينئذ تكون الطاعة اختبارا للإيمان . . ولذلك حين يصف الله رسوله بأنه مطاع معناها أن الرسول سيطلب من الناس ما يضع قيودا على هوى النفس . . ولكنه يصلحها .

ولقد تحدثنا من قبل فيما حرمه الله . . وقلنا ان التحريم هو لصالح كل فرد فينا . . فالإنسان الذى يمد يده إلى مال حرام . . لو أن هذا أبيح لمدت الدنيا كلها يدها إلى ماله . . فإذا كان هو فردا واحدا منع من عمل فقد تم هذا المنع لحمايته هو من أن يمد أفراد كثيرون أيديهم لما عنده . . وفى هذا فوضى تقتلع المجتمع من أساسه . . فمجتمع فيه السرقة مباحة . . ينتهى إلى فوضى تهزه بعنف وتقضى عليه . . ومجتمع فيه القتل مباح . . أو العرض مباح . . . أو أى شىء مما حرمه الله مباح . . هو مجتمع بلاشك مقضى عليه خلال سنوات قليلة . . لا يستطيع إنسان أن يحيا فيه الحياة المطمئنة التى وعدنا الله سبحانه وتعالى بها .

ولعل من الغريب حين نتأمل أننا نجد أن مبادىء الدين الإسلامى مطبقة كقيم اجتماعية فى المجتمعات المتقدمة . . ففى أى مجتمع متقدم تراه يحافظ على حق كل إنسان . . يعاقب أشد العقوبة على الكذب . . باعتباره من الرذائل التى تقود المجتمع إلى عدم الثقة . . وإلى اخفاء الحقائق . . وإلى أشياء كثيرة . . يكافىء الأمين . . ويعترف بالفضل لصاحبه . . ويفتح الآفاق أمام الجميع . . كل هذه الأشياء هى من قيم الإسلام . . ولكن هؤلاء الناس أخذوها وجعلوها قيما إجتماعية . . لماذا ؟ . . لأن التقدم لا يتم إلا بتطبيقها . . بل إن الأعجب من ذلك أننا نجد أشياء هى مباحة فى هذه المجتمعات . . ولكن هذه المجتمعات

تقاومها . . وتشن الحملات لمنعها . . كالخمر مثلا . . محاضرات عن مضار الخمر . . وجمعيات لإنقاذ المدمنين على الخمر من الهلاك . . الذى يقودهم إلى هذا الادمان . . وأبحاث طبية إلى غير ذلك . . أن هذا كله لا يتم إيمانا بالإسلام . . أو لأن الإسلام حرم الخمر . . وإنما يتم عن قيم . . ونتائج فرضت نفسها على المجتمع . . إذا أريد له أن يزدهر . . وفى هذه يقول الله سبحانه وتعالى عن الإسلام :

﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾

سورة الصف

والذى لاشك فيه أنه لا يوجد تفسير أصدق لهذه الآية من التفسير الحادث الآن . . فالذين يحاربون شرب الخمر . . ويحاولون اقتلاع هذا الداء من مجتمعاتهم . . والذين يبيحون الطلاق لأنه ضرورة إجتماعية . . والذين يصنعون القيم للمجتمع مستمدة من تعاليم الله . . ولكن بلا إيمان . . وإنما كضرورة إجتماعية ، يعلنون للعالم أجمع أنهم يظهرون مبادىء هذا الدين . . وإن كرهوا أن يزدهر الدين نفسه . . فهم كارهون لظهور الدين . . وفى نفس الوقت يظهرون مبادئه ويجعلونها قيما إجتماعية . . ولقد قال الشيخ محمد عبده . . حينما زار أوربا . . « رأيت قوما لا يقولون لا إله إلا الله ويعملون بها . . ونحن قوم نقول لا إله إلا الله . . وفى أحيان كثيرة لا نعمل بها » .

الدليل على الاتهام

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

« وما صاحبكم بمجنون »

وهو بذلك يرد على الاتهام الذى حاول بعض المشركين أن يلصقوه ظلما وعدوانا برسول الله . . وانظر إلى قول الله سبحانه وتعالى . . وإلى دقة القرآن الكريم وبلاغته فى التعبير .

« وما صاحبكم »

أى أن هذا الرسول الكريم قد صاحبكم فترة كبيرة .. أربعين سنة .. وعرفتموه .. وعرفتم خلقه جيدا .. فإذا كان اليوم قد جاء بدين يحقق العدالة .. ويسلب الظالم قوته .. ويعطى الضعيف حقه .. فلا تحاولوا أن تصرفوا الناس عن هذا الدين بادعاءاتكم الكاذبة .. ذلك أن رسول الله صاحبكم قبل أن يقوم بتبليغ الرسالة أربعين سنة كان فيها مثالا للأمانة والصدق .. ورزانة العقل .. وكان مفخرة لقومه .. ومن هنا فإن إدعاءكم عليه بأى شيء كاذب .. هذا الادعاء يمكن أن يصحح بكلمة واحدة وهى: **« وما صاحبكم »** أى يمكن أن يصحح أو يرد عليه .. بأن رسول الله لم يأت من بلد بعيد .. ولم يكن محجوبا عنكم قبل الرسالة .. بل كان يصاحبكم وكنتم تشهدون له .. فإذا انقلبت هذه الشهادة الآن إلى ضدها .. فذلك لغرض وهوى فى النفس .. وليس عن حقيقة .. ولذلك فإن الحكم على رسول الله .. قد صدر منكم أنتم قبل أن أبلغكم باختيارى له رسولا كريما .. ومن هنا فإن هذا الحكم هو حجة عليكم بأنكم كاذبون فيما تدعون .. وان قلتم مجنون فمردود عليكم .. أولا بشهادتكم له بالخلق الكريم .. وثانيا بأنكم كنتم عرضتم عليه أن تملكوه عليكم ويترك الدعوة .. فرفض .. فهل كنتم ستملكون عليكم إنسانا مختل العقل .

ولقد حاول المشركون أن ينالوا من رسول الله .. ومن هذا الدين بأكثر من طريقة .. ولكن الله سبحانه وتعالى ناقشهم بالحجة .. وجردهم من كل ما قالوا .. أو من كل ما حاولون أن يمسوا به هذا الدين .. قالوا : إن رسول الله افترى هذا الكلام ونسبه إلى الله .. فتحداهم الله سبحانه وتعالى أن يأتوا بسورة من القرآن .. وإذا كان ادعاؤهم بأن هذا الكلام افتراء .. فليفتروا وليأتوا بمثله .. ولكنهم عجزوا أمام هذه الحجة .. فقالوا شاعر .. ورد الله تعالى :

« قليلا ما تأمنون »

لماذا ؟ .

إن هذا القرآن قد أرسل فى أمة شهرتها البلاغة والفصاحة . . والقرآن ، فى اعجازه البلاغى ، يخاطب كل العقول . . وكل النفوس على اختلافها فى كل وقت من الأوقات . . على اختلاف أحوالها .

ولنشرح هذه النقطة قليلا . . البلاغة هى مطابقة الكلام لمقتضى الحال . . ولا يوجد بشر فى هذه الدنيا يستطيع أن يأتى بكلام يقال فى كل مناسبة . . فيكون مطابقا لمقتضى الحال . . فأنت حين تتحدث لإنسان غاضب ، تتحدث بلهجة . . وحين تتحدث لإنسان سعيد فرح ، تتحدث بلهجة أخرى . . وحين تتحدث إلى حاكم أو أمير . فهناك لهجة ثالثة . . وحين تتحدث إلى إنسان عادى فهناك لهجة رابعة . . ولو أخذنا أبلغ بلغاء العصر . . وقلنا له أنظم قصيدة . . أو أعد كلاما لتلقيه أمام الناس . . بحيث يمكن أن تقوله أمام مجموعة من المتبحرين فى العلم . . وتخاطب به فى نفس الوقت مجموعة من الجهلاء . . وتقوله أمام أمين أو حاكم . . وتقول نفس الكلام أمام خادم هذا الأمير . . ويكون الكلام مطابقا لمقتضى الحال . . فإنه يعجز . . ولكن القرآن فى هذه الناحية قد تخطى كل شروط البلاغة . . فى أنه مطابق لكل أحوال البشر . . يهز نفوس الكفار . . ويهز نفوس المؤمنين . . ويحيط بالحالات النفسية للمخاطبين جميعا . . الغنى منهم والفقير . . التعيس منهم والسعيد . . الخادم منهم والسيد . . وهو يخاطبهم فى حالاتهم النفسية كلها .

فالإنسان الغاضب إذا سمع القرآن هدأت نفسه . . والإنسان السعيد إذا سمع القرآن اهتزت نفسه . . وزادت سعادته . . فالقرآن يحيط بعلم حالات كل الأفراد من أمم مختلفة . . وشعوب مختلفة . . وثقافات مختلفة . . وتراث مختلف . . فإذا سألت كل واحد منهم ما هو شعوره وهو يسمع القرآن . . ربما أعطاك كل واحد جوابا مختلفا . . ذلك لأن القرآن يخاطب فى النفس البشرية أحاسيس وملكات . . لا يعلمها إلا خالقها . . ولذلك فإن هذه الملكات تتأثر

بكلام الله . . وتهتز له . . دون فارق من فوارق الدنيا . . ولذلك كان أخشى ما يخشاه الكفار . . أن يستمع الناس إلى القرآن . . ولو كانوا غير مؤمنين . . حتى أن الوليد بن المغيرة وهو كافر . . قال : إن له لحلاوة . . وإن عليه لطلاوة . . وإن أعلاه لمثمر . . وإن أسفله لمغدق . . وأنه يعلو ولا يعلى عليه . . وهكذا تأثر به دون إيمان .

وعمر بن الخطاب رضى الله عنه حين دخل بيت صهره بعد أن علم بإسلام أخته وزوجها . . كان ينوى الشر . . وما أن استمع إلى آيات القرآن حتى هدأت نفسه . . وانشرح صدره للإسلام . . لماذا ؟؟ لأن القرآن كلام الله سبحانه وتعالى . . وقد خاطب نفسا فى غاية الضيق وهى نفس عمر بن الخطاب وقت دخوله للبيت بنفس الألفاظ التى خاطب بها المؤمنين الذين يقرأون . . وهم فى حالة انسجام وسعادة لقربهم من الله . . وإذا بنفس الآيات التى أدخلت الهدوء والانسجام على نفوس قد آمنت . . أدخلت نفس الهدوء على نفس ثائرة لم تكن آمنت بعد . . ولهذا فإن القول بأنه شاعر مردود عليه . . بأن بلاغة القرآن لا تعطى ولم تعط لبشر .

ثم انتقلوا إلى نقطة أخرى . . قالوا مفترى . . نقول لهم ما دمتم قد فهمتم أنه مفترى . . فافتروا أنتم . . إن كنتم تستطيعون . . بل أن الكفار كانوا أقدر على الافتراء . . فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن له دراية بفن الكلام والخطب والشعر والأدب . . بل أنه لا يقرأ ولا يكتب . . فإذا كان رسول الله وهو لا يعرف القراء ولا الكتابة . . وأنتم تقولون هذا الكلام . . فأنتم تملكون وسائل الافتراء وعندكم الشعراء والأدباء فافتروا مثله . . وكان العجز هو جوابهم .

وهكذا أعجزهم الله

ولقد أراد أن يرد على هذا . . فقال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) ﴾

سورة الحاقة

حتى الرد فيه إعجاز .. فالشعر مفهوم أنه كلام موزون مقفى .. يعرفه الناس جميعا .. ومن هنا فإن القول بأن هذا شعر ، دليل على أنكم لا تؤمنون .. لماذا ؟ .. لأنكم تعرفون الشعر معرفة جيدة .. وهذا ليس شعرا بأوزانه وقوافيه .. ولذلك فإنكم عندما تقولون أنه قول شاعر .. ليس هذا عن جهل .. ولكنه عن عدم إيمان .. ومحاربة لهذا الدين .. لأنكم تعرفون الشعر جيدا .. ولا يمكن أن يغيب عليكم أن ما تقولونه هو افتراء .. لعلكم بقواعد اللغة .. ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

« ولا هو بقول كاهن قليلا ما تذكرون »

وقول الكاهن لا يمكن أن يخاطب كل الملكات .. ولا أن يكون فيه هذا الاعجاز .. كما أن الكاهن يفضحه طول الوقت والزمن .. ومن هنا فإنه كبشر ينسى ويأتى بعكس ما قاله نتيجة لمرور الوقت والزمن .. ولذلك عندما رد الله سبحانه وتعالى على قولهم بأنه كاهن .. كان الرد بكلمة تتذكرون .. لأن طول الزمن الذى يجعل الكاهن ينسى ما قاله .. خصوصا عندما يكذب .. فتكون كلمة تتذكرون هى الفيصل .. ولم يستخدم هنا عدم الإيمان التى استخدمها سبحانه وتعالى فى قولهم شاعر .. لأن الشعر له قواعد معروفة ويكون الكلام على أنه قول شاعر .. قصد الافتراء فيه واضح .. ويلاحظ هنا أن الله يقرع الحجة بالحجة .. والتحدى بالتحدى .

ورد رسول الله :

ما أنا بقارىء

وتمضى الآية الكريمة : **« ولقد رآه بالأفق المبين »** .

ما معنى هذه الآية . . محمد صلى الله عليه وسلم رأى جبريل فى صور متعددة . . رآه فى صورة بشر . . ورآه فى صورة مَلَكْ . . ثم رآه فى صورته الحقيقية . . عند سدرة المنتهى . . فى الإسراء والمعراج . . هناك رأى رسول الله جبريل فى صورته الحقيقية . . فى السماء . . ولقد كان أول لقاء بين جبريل وبين رسول الله فى الغار . . وكان هذا اللقاء أول امتزاج لرسول الله بالملك الذى جاء بوحى السماء . . وكان امتزاجا فيه معان كبيرة . . أولها أمر من الله سبحانه وتعالى يوضح لنا . . أن هذا المنهج يأتى بأمر وقدرة الله . . دون ما تدخل بشرى . . فقال له الملك:اقرأ . . ورد محمد عليه الصلاة والسلام : ما أنا بقارىء . . وكلا القولين يتم بالأسباب التى يملكها كل منهما . . فالملك يقول: اقرأ . . أمر من الله سبحانه وتعالى . . ومحمد يرد:ما أنا بقارىء . . بالأسباب البشرية . . فهو لم يتعلم القراءة والكتابة . . حتى يستطيع أن يقرأ . . ويضمه الملك ضمة شديدة . . ضمة تجهده وترهقه . . لماذا ؟ . . لا لأن فيها امتزاجا بين الملَك والبشرية . . هذا الامتزاج وهو الوحى كان صعبا شديدا على محمد عليه الصلاة والسلام . . حتى أنه كان يتصبب عرقا . . وذهب إلى خديجة وهو يرتجف . . امتزاج رهيب بين بشَر وملَك . . لا يمكن أن يتم إلا بأمر الله سبحانه وتعالى . . واختلاف الطبيعة والقوانين . . ولا أن يتحمل إلا بقدرة الله ورحمته . . ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد جعل لكل جنس خلقه قانونا . .

فالبشر لهم قانون يتمشى مع خلقهم من طين . . والجن لهم قانون يتمشى مع خلقهم من نار . . والملائكة لهم قانون يتمشى مع خلقهم من نور . . وكل واحد من هؤلاء بقانونه الخاص لا يستطيع أن يمتزج بالآخر . . وإذا كان هناك امتزاج بين إنس وجن . . فهذا لا يتم بقانون عام . . ولكنه يتم بقوانين خاصة . . قد يصل إليها بعض الناس دون بعضهم . . والذى يحصل على هذه الميزة . . ويستخدمها فى غير ما يرضى الله . . يصيبه عذاب أليم . . ولكن الامتزاج بين الملائكة والبشر لا يتم إلا للرسل . . أو لمن يختاره سبحانه وتعالى برسالة أو مهمة فى الأرض .

ساعة نزول القرآن . . قال جبريل ناقلا كلام الله سبحانه وتعالى إلى محمد عليه الصلاة والسلام: « اقرأ » . . فرد النبى : ما أنا بقارىء . . ولقد كان الاثنان يتحدثان بوحى من قانونهما . . فجبريل يقول : اقرأ . . لأن الله سبحانه وتعالى قرر أن يعلم محمد ما لم يعلمه لأهل الأرض كلهم . . ورد الرسول: ما أنا بقارىء . . كان من واقع السبب البشرى . . والصدق مع النفس . . إذ كيف يقرأ وهو لم يتعلم القراءة ولا الكتابة . . ولقد جاء هذا بحكمة . . ليقول الله سبحانه وتعالى لرسوله : اننى أعلم أنك لا تعرف القراءة ولا الكتابة . . ولكننى سأعلمك ما لم أعلمه لأحد من العالمين . . وبذلك يكون العلم من الله سبحانه وتعالى . . لا دخل لبشر فيه . . ولا لإنسان . . وتكون الأسباب هنا غير متمشية . . فعندما يأمر الله لا توجد أسباب . . ولكن توجد طلاقة القدرة التى تَجُبُّ الأسباب كلها . . فالأسباب وضعت للحياة الدنيا وحدها . . وحتى تسير نظم الحياة . . ولكنها لم توضع للآخرة مثلا . . حتى تتم الأشياء بلا أسباب . . بمجرد ورودها فى الخاطر أو الذهن تتم .

وكان هذا اللقاء بين الملك الكليم . . والرسول الكريم معجزة . . لتعلن للناس . . إن المعلم هنا ليس الإنسان . . ولكنه الله سبحانه وتعالى . . ولذلك قال :

« إقرأ باسم ربك »

أى أن الله هو المعلم . . انك لم تقرأ يا محمد بالأسباب . . ولن تقرأ بأن نرسلك إلى معلم يعلمك القراءة والكتابة . . ولكن ستقرأ باسم الله . . أو بقدرته . . ستتعلم ما لم يتعلمه بشر . . وكان هذا الاعجاز كافيا ليؤمن الجميع بأن المنهج من الله سبحانه وتعالى . . ولكن الكبر والكفر والعناد من البشر . . وقفت حائلا دون ذلك .

وهكذا كان الاعجاز فى القرآن الكريم من أول لحظة . . ولقد رأى محمد

عليه الصلاة والسلام جبريل فى أكثر من صورة . . ولكنه عندما صعد إلى السماء رآه فى صورته الحقيقية . . كتطمين من الله سبحانه وتعالى لمحمد . . واعجاز بأن أطلعه على ما لم يطلع عليه أحدا من خلقه .

رآه رأى العين

إذن فقول الله سبحانه وتعالى :

« ولقد رآه بالأفق المبين »

دليل على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف المنهج . . ويعرف المبلغ عن الله وهو جبريل عليه السلام . . ومن هنا فلا يقال ولا يقبل قول فيه أى اهتزاز عن الوحى . . ذلك أن محمد صلى الله عليه وسلم قد رأى جبريل رأى اليقين بحيث لا يختلط عليه أى شيء . . بينما يعرف جبريل معرفة تامة . . وهو ينقل عن يقين بأن الوحى من الله سبحانه وتعالى يقين وحق . . وتمضى السورة الكريمة :

« وما هو على الغيب بضنين »

أى أن الله سبحانه وتعالى يشهد الرسول أنه يقوم بالتبليغ الكامل لكل شيء . . ولا يحجب شيئا عن المؤمنين بل إنه فى أمانة المبلغ حريص عليها كل الحرص . . وفى تعليم المسلمين لدينهم . . وإفهامهم بكل أحكام هذا الدين . . لا يضن بشيء مما يوحى إليه غيبا عن الناس جميعا . . أى أنهم ليسوا شهودا على الرسول والوحى وقت الإبلاغ . . ولكن الله سبحانه وتعالى يشهد . . أن الرسول يقوم بتبليغ كل شيء .

لقد كانت هناك أحكام جاء القرآن وصححها . . وأحكام أخرى جاء القرآن وأقرها . . وهناك عتاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى افراطه فى الرحمة بمن لا يؤمنون . . ذلك أن الرسول قد بعث رحمة للعالمين . . يعرف ويرى تماما

ما ينتظر غير المؤمنين من عقاب عظيم . . ومن هنا فهو مشفق على الناس جميعا . . لأنه مرسل إليهم جميعا . . يحاول أن يبذل كل ما يستطيع . . وفوق ما يستطيع ليدخلهم إلى رحمة الله . . لأن الله أرسله صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين . . وفى هذا يحمل نفسه فوق ما يطيق . . والآيات التى فيها عتاب على رسول الله تحمل هذا المعنى . . شيء حمل رسول الله نفسه عليه . . وهو غير محمول عليه بحكم التشريع . . شيء مباح ، ورسول الله قيد نفسه حتى فى المباح . . وخرج من السهل إلى الصعب . . قول الله تعالى :

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ ﴾

سورة عبس

أيهما أسهل على رسول الله . . أن يدعو إلى الهدى رجلا أعمى . . جاء وفى قلبه إيمان . . أم أن يتعب نفسه مع صناديد قريش الذين ملأ الكفر قلوبهم . . الأسهل طبعا أن يجلس مع ذلك الذى جاء يطلب الإيمان فيهديه إلى طريق الإيمان . . ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يختار الطريق الأصعب . . أنه يريد أن يعز الإسلام بصناديد قريش وزعمائها . . وهنا تتدخل الارادة الإلهية . . الرسول يترك أمرا سهلا ميسورا . ويكلف نفسه بالجانب الشاق .

وهنا يقول الله . . لماذا تترك السهل وتحمل نفسك كل هذه المشقة . . لا تضيق على نفسك لأن الله غنى عن هؤلاء جميعا . . والآية هنا من مقام العبادة . . وزيادة القرب من الله سبحانه وتعالى . . ولذلك كان رسول الله يحمل نفسه المشقة زيادة فى مقام العبادة . . فيقول الله سبحانه وتعالى لنبيه : انني لا أريد منك أن تحمل نفسك فوق ما تطيق . . إنه حب من الله لنبيه . . وحب وعبادة من الرسول لله .

صدق المنهج فى التبليغ

ولعل هذه الآيات على قلتها تلفتنا إلى شيء هام . . هو : لو أن رسول الله

صلى الله عليه وسلم لو لم يبلغ كل ما أوحى إليه عن الآية لكانت هذه الآيات هى ما يحجب عن المؤمنين .. ولكنها دليل على صدق البلاغ عن الله سبحانه وتعالى .. وإن رسول الله كما وصفه الله :

« وما هو على الغيب بضنين »

أى أنه لا يخفى شيئا أبدا مما يوحيه الله إليه .. ثم تمضى السورة الكريمة :

« وما هو بقول شيطان رجيم »

والشياطين فى الماضى كانت تسترق السمع فى السماء .. وكانت فى استراقها هذا تعلم ببعض أشياء قبل أن تنزل إلى الأرض .. ولكن هذا منع تماما وقت نزول القرآن .. وقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى عن ذلك :

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩ ﴾

سورة الجن

وهكذا وقت نزول القرآن منعت الجن والشياطين من استراق السمع لما ينزل من السماء .. ولذلك فإن هذا ليس بقول شيطان قد استرق السمع من السماء .. ووصل إلى شىء ما .. بل إنهم معزولون تماما عن السمع .. لا يستطيعون الوصول إلى القرآن .. ومنهج الشيطان مخالف تماما لمنهج الله سبحانه وتعالى فى كل شىء .. وهو منهج يدعو إلى الافساد فى الأرض .. وإلى القتل .. والمذابح ويبيح الحرمات .

فأين تذهب

ثم بعد ذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

« فأين تذهبون » .

وفى هذا تذكير لنا بأن الله خلقنا . . وأننا إليه نعود . . فأين تذهبون . . أى تختفون من الله . . فلا يوجد مكان فى الأرض . . يخرج عن علم الله . . ولا يوجد علم تعلمه يخفى على الله سبحانه وتعالى . . ولا يوجد مكان تذهب إليه ولا يستطيع الله أن يعيدك منه . . كل المنافذ التى تعتقد أنها تستطيع أن تنجيك من الله فى الدنيا والآخرة مطلوب منك أن تأخذ بها . . ثم بعد ذلك سترى أنه لا يوجد منفذ واحد تستطيع أن تخرج فيه أو منه عن علم الله . . أو ارادة الله . . أو قدرة الله . . فأينما تكن . . وحيثما كنت . . يأت بك الله وقت أن يشاء . . وحين يشاء .

أنتم تجادلون فى الدنيا . . وتجادلون فى هذا الدين . . وتكابرون وتستكبرون فى الأرض . . ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يسألكم سؤالا . . ويطلب منكم الإجابة عليه :

« فأين تذهبون » .

أخبرونا فى أى مكان يمكن لكم أن تخرجوا عن ارادة الله سبحانه وتعالى . . أو عن قدرته . . كل واحد منا لابد أنه ملاقى الله . . فأين تذهبون . . ذلك هو السؤال الذى لا يستطيع أى فرد أن يجيب عليه . . ولا يملك أى إنسان القدرة أو القوة أن يفلت من مُلْك الله .

الله سبحانه وتعالى سأل هذا السؤال . . وطلب الإجابة . . وهو يعلم أنهم سيعجزون عن الإجابة . . ولكنه أراد أن يلفتهم إلى أن البشر كلهم سيلاقونه . . وأنه لابد من لقاء الله . . ولذلك يجب أن يرسم كل إنسان حياته على أنه سيلاقى الله سبحانه وتعالى . . ويسأل نفسه أين يذهب . . وماذا سيفعل فى هذا الموقف . . ولو كان هذا السؤال حاضرا دائما فى أذهان الناس لامتنعوا عن كثير من المحرمات . . والظلم الذى يرتكبونه . . فإذا أرادوا أن

يفتكوا بضعيف تذكروا قدرة الله عليهم . . وإذا أرادوا أن يحصلوا على مال حرام . . تذكروا أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يذهب هذا المال . . ومعه المال الحلال فيما ينغص حياة الإنسان . . كالمرض الذى ينفق أى شخص الألوف دون أن يستطيع الحصول على الشفاء . . أو كالولد الفاسد الذى يأخذ المال بالقوة والعنوة . . ويبعثره يمينا ويسارا حتى يفنيه . . أو الزوجة التى لا تراعى الله فى مال زوجها . . وتنفقه فى تفاهات الحياة . . وببذخ شديد .

كل هذه الأشياء وغيرها . . إذا حدثت لك فإنك تنفق المال وأنت تعيس . . أى أن المال الذى أخذته حراما . . لا يأتيك بالسعادة . . ولكن يأتيك بالتعاسة . . وأنت تعيش مريضا بلا أمل للشفاء . . أو ترى ابنا عاقا ينتزع أموالك بالقوة . . أو زوجة تبعثر مالك يمينا ويسارا على كماليات الحياة .

هذا هو الشقاء الذى يأتى من أن تنسى الله . . ثم بعد ذلك يأتى يوم القيامة فيحاسبك الله على ما فعلت . . فتكون فى هذه الحالة قد أخذت الشقاء فى الدنيا والآخرة . . امتدت يدك إلى مال حرام فجعله الله نقمة عليك . . فكنت شقيا وأنت تنفقه . . وكنت شقيا عند لقاء الله .

والإنسان إذا نسى الآخرة أو أنكرها . . فليفعل ما يشاء . . فالآخرة والحساب أساس الإيمان . . ولقاء الله سبحانه وتعالى هو ما يشغل بال أى مؤمن ويجعله يتجه إلى الطريق السليم . . والله سبحانه وتعالى الذى يشمل برحمته ملايين البشر فى العالم كل يوم . . ليس عاجزا على أن يشملك برحمته . . والله سبحانه وتعالى الذى يرزق كل من فى الأرض . . ليس صعبا عليه أن ييسر لك رزقك ويزيده . . ويفتح لك أبوابا جديدة . . والله سبحانه وتعالى الذى يزيل برحمته الهموم والمتاعب كل يوم عن الملايين . . ليس عاجزا عن أن يحل لك مشكلتك . . والله سبحانه وتعالى الذى يدبر كل شىء . . وييسر كل شىء . . قادر على أن يدبر لك . . وييسر لك الحياة الطيبة فى الدنيا والآخرة . . ولكنك

حين تنسى لقاء الله تنقلب الموازين فتصبح الدنيا حراما أو حلالا . . هى الهدف لا فرق بين ما يغضب الله . . وبين ما يرضيه . . لأنك لا تؤمن بلقاء الله فى الآخرة . . ومن هنا جاء السؤال ليجعلك تفكر قليلا وترى أن كل إنكار للقاء الله سبحانه وتعالى . . هو زيف حقيقة . . والله يقول :

« فأين تذهبون »

وليقل لنا أى إنسان غير مؤمن . . إلى أين سيذهب . . وكيف سيهرب من لقاء الله . .

وتستطرد السورة الكريمة :

« إن هو إلا ذكر للعالمين ».

وكلمة ذكر هنا تلفتنا لفتة ثانية . . معنى الذكر أن شيئا كان عندك فغفلت عنه . . وبذلك يذكرك به . . وكان الأصل فى الإنسان أنه حينما خلقه الله سبحانه وتعالى تلقى المنهج عن آدم عليه السلام . . وكان مفروضا أن آدم يبلغه لذريته . . ولكن الحقيقة أنه كلما بعد الزمن تغفل النفس قليلا . . ويبدأ التحريف والتبديل فى منهج الله . . وينصرف الناس عن المنهج واضعين أهواءهم أساسا لحياتهم . . فيبعث الله رسولا ليذكرهم .

وفى القرآن يروى لنا الله سبحانه وتعالى كيف غفل الناس جيلا بعد جيل عن الله . . وكيف أرسل الله سبحانه وتعالى الرسل إليهم . . كما يبين الله لنا الداءات التى تهلك المجتمع وتصيبه بغضب من الله . . ولقد قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾

سورة الأعراف

بعض السطحيين الذين يقرأون القرآن يسأل : كيف أقر الناس وأجابوا بنعم عندما سألهم الله :
« ألست بربكم »

ثم بعد ذلك اختلفوا . . والحقيقة أن الله سبحانه وتعالى أشهدهم على ربوبيته . . وهى شىء لا يختلف عليه أحد فى العالم . . والله سبحانه وتعالى هو الذى يعطى عمل الربوبية . . عطاء متساويا للجميع . . فالشمس ترسل أشعتها للكافر . . والمؤمن . . سواء بسواء . . ولا تأتى على أرض المؤمن فتشرق عليها . . وعلى أرض الكافر فلا تشرق . . وكذلك الأرض تنفعل بكل من حرثها ووضع البذرة فيها . . ثم سقاها بالماء . . سواء كان هذا الإنسان مؤمنا أو كافرا . . فهى لا تفرق بين هذا وذاك . . وإنما تعطى للشخص بقدر عمله واخلاصه فى اصلاحها . . وريها والعناية بشئون الزرع .

هذا كله عطاء ربوبية . . فلا أحد يستطيع أن يدعى أنه خلق الشمس . . ولا أحد يمكن أن يقول إنه هو الذى أوجد الأرض . . ولا البحار . . ولا الريح . . ولا الجبال . . ولا خواص الغلاف الجوى . . إلى آخر ما نعرفه . . ونستفيد منه . . هذا كله عطاء ربوبية خصصه الله للإنسان على اطلاقه . . ولم يخصصه لمؤمن دون كافر . . ولا أحد يستطيع أن ينكر عطاء الربوبية . . لأنه ظاهر . . ولا أحد يمكن أن يدعيه لنفسه من دون الله . . إذن فعطاء الربوبية لا يختلف عليه أحد ولكن المسألة هى فى العبادة والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى . . فالله قد قال ألست بربكم . . ولم يقل ألست بإلهكم . . وكان عطاء الربوبية الذى نراه أمامنا واضحا جليا . . يجب أن يقودنا إلى العبودية لله سبحانه وتعالى .

قلب الإنسان . . والغفلة

إذن فمعنى القول :
« إن هو إلا ذكر »

إن الإيمان فينا بالفطرة . . وأنه كان يجب أن ينقل إلينا كما علمنا آباؤنا كثيرا من أمور الحياة . . ولكن قضية الدين دائما تتبعها الغفلة . . لماذا ؟ مثلا لم يغفل الإنسان أو لا يغفل أبدا عن صنع الخبز . . وهى عملية منقولة لنا عن الآباء . . هم الذين علمونا كيف يطحن الدقيق ويترك حتى يخمر ثم يخبز . . وقالوا لنا إنه إذا لم يترك الدقيق حتى يخمر فسد الخبز . . وحرصنا نحن على ذلك . . ولكننا سمعنا منهم عن المنهج . . ولم نحرص عليه . . لماذا ؟ لأن المنهج يقف دائما أمام شهوات النفس . . فى أن تغتصب مالا حق لها فيه . . وأن تعتدى على الضعيف . . وأن تحصل على مال بدون وجه حق . . والنفس بطبيعتها تريد أن تتملك . . وأن تتملك بلا حدود . . ورغم علم الإنسان يقينا أنه سيأتى إليه يوم قرب أو بعد . . يترك هذه الدنيا . . ويخرج منها كما دخلها لا يحمل شيئا من متاع الدنيا ولا زخرفها . . رغم علمنا بذلك . . فإن الطمع البشرى يجعلنا نريد أن نملك ونملك . . حتى ولو عرفنا أننا تاركوه . . بل أن الإنسان رغم علمه اليقينى بالموت يعتقد أن كل إنسان غيره سيموت . . ويستبعد هو نفسه أن تأتى نهايته . . ولذلك قال رسول الله صلى الله علية وسلم : « لم أر يقينا أشبه بالشك كيقين الإنسان بالموت » .

الدين يضع القواعد والضوابط . . ويسوى بين الناس . . ويكبح جماح النفس . . ذلك الذى يريد أن يحصل على كل شىء حقا كان أو باطلا . . وألا يحصل غيره على شىء . . هذه الأشياء التى يظنها البعض قيودا على النفس . . وهى فى الحقيقة خلق مجتمع يسوده السلام والحب . . ونبذ الكراهية والحقد . . ولو طبق كل إنسان منهج الله على نفسه لاستراحت البشرية كلها . . والله سبحانه وتعالى حين يقول :

« ذكر »

يعنى أن هناك قضية . . وهى قضية الغفلة عن المنهج . . وأن الله يريد أن يذكرنا بها . . علنا نناقش أنفسنا . . والعجيب أننا فى أشياء كثيرة نترك الذكر تماما . . فالابن إذا أصيب بمرض . . الأب يأتى له بأحسن الأطباء وقد يحمله من

بلد إلى بلد باحثا عن الشفاء . . ولكنه إذا عرف أن ابنه لا يصلى تجاوز عن ذلك ببساطة ولا يذكره بالصلاة . . ولا يذكره بمنهج الله ولكن من أين تأتى الغفلة . . هذا هو حديثنا فى الفصل القادم .

حديث قدسى:

يا عبادى . . كلكم ضال إلا من هديته . . فسلونى الهدى أهدكم . . وكلكم فقير إلا من أغنيته . . فسلونى أرزقكم . . وكلكم مذنب إلا من عافيته . . فمن علم منكم إنى ذو قدرة على المغفرة . . فاستغفرنى غفرت له ولا أبالى . يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم اجتمعوا على أتقى قلب رجل من عبادى ما زاد ذلك فى ملكى جناح بعوضة . . ولو أن أولكم وآخركم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم . . اجتمعوا على أشقى قلب من عبادى . . ما نقص ذلك من ملكى جناح بعوضة . . ولو أن أولكم وآخركم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم . . اجتمعوا فى صعيد واحد . . فسأل كل إنسان منكم ما بلغت أمنيته . . فأعطيت كل سائل منكم ما سأل . . ما نقص ذلك من ملكى . . إلا كما لو أن أحدكم مر بالبحر . . فغمس فيه ابرة ثم رفعها إليه . . ذلك بأنى جواد ماجد . . افعل ما أريد . . عطائى كلام . . وعذابى كلام . . إنما أمرى إذا أردته أن أقول . . كن فيكون .

كل عمل ابن آدم يضاعف . . الحسنة بعشر أمثالها . . إلى سبعمائة ضعف . . إلى ما شاء الله . . إلا الصوم . . فإنه لى . . وأنا أجزى به . . يدع شهوته وطعامه من أجلى . . للصائم فرحتان : فرحة عند فطره . . وفرحة عند لقاء ربه . . ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك . .



الفصل الثالث

الإنسان .. والأمانة

الانسان ... والامانة

من أين تأتى الغفلة . . ولماذا تصيب الإنسان بالذات . . لأنّ الإنسان هو الذى اختار أن يحمل الأمانة .

أخذ الإنسان حرية الاختيار فى افعل ولا تفعل . . فماذا حدث . . صور له جهله أشياء كثيرة . . فعبد كل شىء فى الدنيا . . لا ينفعه ولا يضره . . عبد الأحجار والأصنام . . وعبد النار والشمس . . وعبد الحيوانات المفترسة والحيوانات الأليفة . . وانطلق فى جهل بعيد عن الله سبحانه وتعالى الخالق لكل هذا الكون المدبر له . . انطلق الإنسان جاحدا بنعمة الله . . ترك الرسالات التى أنزلها الله سبحانه وتعالى له . . ليبين له طريق الحياة الطيبة الآمنة . . وأخذ يشرع لنفسه حسب أهوائه . . فأصابه الشقاء فى الدنيا . . وحلت به الكوارث . . ولكن لماذا فعل الإنسان ذلك . . ؟

إذا أردنا أن نصل إلى ما تريده النفس البشرية فى هذه الدنيا . . فقد لخصه الله سبحانه وتعالى فى شيئين أساسيين . . وصف بهما وصفا بليغا مدخل الشيطان إلى النفس البشرية . . وما يريده كل إنسان . . ذلك أن الشيطان حين أراد أن يغرى آدم بمعصية الله سبحانه وتعالى قال له :

« هل أدلك على شجرة الخلد . . وملك لا يبلى »

إذن الإنسان يريد شيئين فى الدنيا . . الخلود والأموال التى لا تفنى . . ولا تنتهى . . أنه يريد أن يبقى فى الدنيا خالدا لا يموت . . ويريد أن يكون له ملك يعيش عيشة الترف التى يريدها دون أن تتأثر هذه الأموال بكل ما ينفقه . . ومن هنا كان مدخل الشيطان للنفس البشرية . . هذه الآلهة كلها التى اخترعها البشر هى إما جالبة للرزق . . وإما دافعة للضرر وتبعده عن الموت . . وهى فى الحقيقة لا تفعل هذا ولا ذاك . . ولكنه الخوف الذى يضعه الشيطان فى النفس غير المؤمنة هو الذى يجعلها تعتقد أن هناك شيئا فى يد أحد غير الله سبحانه وتعالى .

وهنا نتوقف قليلا عند هذه النقطة . . الله سبحانه وتعالى حين أخذ من آدم ذريته . . وأشهدهم على أنفسهم . . نجد فى النفس البشرية أثر هذا حتى الآن . . فكل نفس بشرية تعرف الله بالفطرة . . ولا تحتاج لأى شرح إذا ذكرت لها كلمة الله سبحانه وتعالى . . يكفى أن تذهب إلى الحج لترى اسم الله ينطق بجميع لغات الدينا . . بكل لغة من لغات العالم . . والمعنى واحد . . وهؤلاء الناس الذين جاءوا من كل بقاع الأرض قد لا يستطيعون التحدث معا . . أو التفاهم معا . . لأنهم لا يفهمون بعضهم البعض . . ولا يتكلمون لغة بعضهم البعض . . ولكن إذا ذكر اسم الله أمامهم توحدت قلوبهم عند كلمة الله . . وإذا أقيمت الصلاة توحدت وقفتهم جميعا بين يدى الله . . هم لا يعرفون بعضهم البعض . . وربما التقوا أياما فى الحج . . ثم بعد ذلك لا يلتقون . . ولكن رغم أنهم غرباء فى كل شىء . . تجمعهم كلمة الله سبحانه وتعالى . . بل ان الله سبحانه وتعالى يمعن فى التحدى . . ويقول « هذا هو الله » فهل تجد له سميا . . أى أنه تحدث فى القرآن . . إنه هو خالق كل شىء . . وهو الله لن تجد اسمه يطلق على أحد .

عندما يتحدى الخلق جميعاً

وهذه نقطة يجب أن نقف عندها . . إن عادة الإنسان أن يطلق اسما على كل شىء . . لا يوجد شىء فى الدنيا بغير اسم إلا إذا كان مجهولا من الإنسان فكل شىء يطلق عليه اسم . . أنت لك اسم . . وإذا جاءك ابن تطلق عليه اسما . . والظواهر الطبيعية لها أسماء . . وكل شىء فى الدنيا له أسماء . . والاختراعات الجديدة . . والاكتشافات الجديدة يضع الإنسان لها أسماء . . حتى يستطيع الإنسان أن يعرفها أو يعرفها ـ بتشديد الراء ـ إذن فكل شىء فى هذا الدنيا له اسم يميزه عن غيره . . ثم يأتى القرآن ويتحدى . . ويقول . . إن الله سبحانه وتعالى لن تجد له سميا . . أى لن تجد إنسانا يتسمّى باسمه .

والتحدى هنا لمن ؟ . . التحدى فى القرآن ، وفى الإيمان هو للمشركين ، ذلك

أن القرآن لا يتحدى المؤمن أبدا . . لأن المؤمن قد أمن وأطاع . . وهو ليس محتاجا للتحدى . . ولكنه محتاج لما يزيده إيمانا . . وقربا من الله سبحانه وتعالى . . أما المحتاج للتحدى فهو ذلك الذى يكفر . . فيأتى الله ليقول له : ان هناك تحديا . . تحديا لك فى كذا وكذا . . فهل تستطيع أن تفعله . . يا من تعبد نفسك . . أو تعبد الإنسان أو تعبد الحجر أو تعبد أى شىء آخر . . إذا كنت تريد أن تثبت حقيقة أنك أنت وما تعبده . . يعضدونك ويشدون أزرك . . لهم قطرة من القوة . . فانني أتحداكم أن تفعلوا كذا وكذا .

والتحدى دائما من الله سبحانه وتعالى للإنسان . . يكون فى أمر اختيارى . . إذ أن التحدى لا يمكن أن يكون فى أمر اجبارى يجبر الإنسان عليه . . بمعنى مثلا أننى لا أستطيع أن أقول لإنسان أننى أتحداك مثلا أن تطيل عمرك شهرا أو شهرين . . أو أتحداك ألا تصاب بمرض طوال حياتك . . إلى آخر هذه الأمور التى لا اختيار للإنسان فيها . . هنا يكون التحدى بالغ الصعوبة . . وغير ميسر . . وأحيانا مستحيل ولا يعتبر تحديا . .

ولكن الله سبحانه وتعالى حينما يتحدى . . يأتى بأمر اختيارى يمكن لأى إنسان أن يصل إليه ويتحدى فيه . . فالله سبحانه وتعالى مثلا علم أزلا أن بعض الناس سيتخذون العلم الذى أتاحه الله لعقول البشر . . وجعله فى طاقته . . سيأخذون هذا العلم ليعبدوه ويتخذوه إلها . . ويقولون انتقلنا من عصر الدين إلى عصر العلم . . هذا علم الله أزلا . . فوضع فى القرآن ما يرد عليهم . . قال لهم : إن الذى تعبدونه من دون الله قد يوصلكم إلى أشياء تدهش عقولكم . . وتزعزع إيمانكم . . ولكنى أقول لكم أن هذا العلم بهيلمانه عاجز عن أن يخلق ذبابة .

هذا تحد رهيب للعلم الذى وصل إلى القمر . . وهو فى طريقه إلى المريخ لن يستطيع أن يخلق ذبابة واحدة . . ولو اجتمع لها علماء العالم كله . . وفعلا كان

هذا هو التحدى . . والتحدى هنا يقول أنا سأعطيكم من علمى ما أريد . . لتصلوا إلى القمر . . وتطيروا فى الهواء . . وتفعلوا ما يعتبره العقل البشرى يشبه بالمعجزات . . ولكن لكى تعلموا أن هذا بأذنى وأمرى . . فاننى سأمنع عنكم خلق أحقر شىء « الذبابة » . . ستصلون بعلمكم إلى ما أريد . . ولكن لو اجتمع علماء العالم كلهم ليخلقوا ذبابة . . ما استطاعوا .

ويأتى العلم ليحقق للعالم أشياء كثيرة . . حتى أن الإنسان أصبح يملك وسائل نسف الأرض . . ووسائل الكترونية حديثة تفوق فى خدمتها كل ما تصورته العقول . . ونزل الإنسان فوق القمر . . وهو فى طريقه إلى كوكب الزهرة . . إلى غير ذلك . . ولكن التحدى ظل قائما . . ذلك أن الإنسان لا يستطيع مع كل ما أوتى من العلم أن يخلق ذبابة . . أو حتى جناح ذبابة .

جاء التحدى فى أشياء أخرى كثيرة فى القرآن . . مثل المطر . . وبالرغم من كل الاختراعات الحديثة . . فإن العلم عاجز عن أن ينشأ سحابة صناعية . . ويجعلها تمطر حيث يريد . . بل إن بعض بلاد الدنيا تعانى من كثرة الماء . . وكثرة الأمطار . . والبعض الآخر يعانى من القحط الشديد . . والعلم لا حيلة له فى ذلك .

مع أن الله كشف لنا الطريقة التى يتكون بها السحاب . . ثم الطريقة التى ينزل بها المطر . . وهنا إمعان فى التحدى . . إذ أنه يعطينا الأسباب . . ويجعلنا عاجزين عن العمل . . ثم يتحدانا فيأمر اختيار كإنزال المطر مثلا . . وهو أمر أبسط كثيرا علميا . . من الوصول إلى القمر والمريخ . . ولكن الإنسان لا يستطيع أن يقوم بها .

وفى القرآن تحديات كثيرة ليست هى موضوع حديثنا الآن . . إذا أن الحديث عن الله والنفس البشرية . . حين يأتى الله سبحانه وتعالى ويريد أن يتحدى الكفار فى شىء اختيارى . . هل الله يريد أن يتحدى كافرا بعينه . . أو طبقة من

الكفار بعينها كالعلماء . . أو التجار ؟ . . أم أنه يريد أن يكون التحدى شاملا للجميع . . يستطيع أن يقدر عليه كل كافر . . حتى ذلك الذى لا يكتب حرفا . . لم يعرف من الدنيا شيئا . . يأتى الله سبحانه وتعالى ويجعل التحدى هنا عاما فى مقدرة كل فرد .

التحدى . . فى الاسم

أى أنه يتحدى فى الاسم . . والاسم هنا شىء يقدر عليه كل إنسان . . بل ويستخدمه كل إنسان فى الدنيا كلها . . كل فرد يستخدم الأسماء مهما بلغت ثقافته أو علمه . . أو جنسيته . . إلى آخره . . يأتى الله سبحانه وتعالى ويتحدى . . ويقول إننى أنا الله . . وهذا اسمى . . سأختص به نفسى . . ولن تجد له سميا . . أى مسمى بهذا الاسم فى الدينا كلها .

يأتى هذا التحدى وأنا أوجه السؤال إلى كل من يقرأ هذا الحديث . . هل سمعتم عن إنسان اسمه « الله » ؟ . . هل سمعتم إن عقلا بشريا جرؤ على أن يطلق هذا الاسم على ابن له . . أو زوج له . أو على أى شخص كان . . حتى الآلهة التى اخترعها الإنسان ليعبدها جعل لها أسماء ليس بينها اسم « الله » سبحانه وتعالى . . ولقد جاء هذا التحدى فى أمر اختيارى . . أى يستطيع أى إنسان يفعله بإرادته . . وفى أمر لا يستلزم أى مؤهلات . . أى يستطيع أى فرد فى الدنيا أن يقوم به دون أن يكون له ثقافة أو علم . . أو فكر . . أو أى شىء مميز . . أى أنه تحد للبشرية كلها . . ومع أن هذا التحدى نزل منذ أربعة عشر قرنا . . ومع أن هناك أناسا يعملون ضد دين الله . . ويحاولون هدمه . . لم يستطع واحد منهم أن يطلق الاسم على فرد أو شىء . . أو حتى على إله يعبده . . وهكذا بقى التحدى . . وسيبقى حتى يرث الله الأرض ومن عليها

هذا التحدى لا يقدر عليه إنسان . . ولا يمكن أن يقوم به بشر مهما بلغ شأنه . . ولكن التحدى فى أمر اختيارى لا يستلزم أى صفات أو مؤهلات

معينة . . وعجز الإنسان عن مواجهة هذا التحدى . . هو قدرة من قدرات الله سبحانه وتعالى وحده .

وبرغم ذلك التحدى الذى لا يجيب عليه أحد . . نجد بعض الناس يحاولون جاهدين انكار وجود الله سبحانه وتعالى . . ويجادلون فى ذلك جدالا كثيرا . . ولكن هؤلاء الناس نفسهم حينما تعجز الأسباب عن أن تدفع عنهم ضرا . . وحين يجدون نفسهم فى كرب لا يستطيعون الخروج منه . . أو فى بلاء لا يستطيعون رده . . تجد ألسنتهم تصيح بلا شعور يارب . . وتستنجد بالله الذى يحاولون انكار وجوده . . كيف تستنجد نفس بالله سبحانه وتعالى . . وهى فى نفس الوقت تحاول أن تنكر وجود الله . . إنها تجزع إليه . . تستغيث بالخالق . . بالقدرة . . بالقوة . . بالذى يقول كن فيكون . . كيف يتم ذلك ؟ .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد عرف ضعف النفس البشرية . . كما علم أنها ستبتعد عن المنهج . . فوضع لها تحديات فى القرآن الكريم . . فإنه سبحانه وتعالى حفظ القرآن من العبث البشرى . . فماذا فعل الله . . لقد كانت الكتب السماوية التى سبقت القرآن أمانة فى أعناق البشر . . ومعنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد أئتمن البشر عليها . . هم الذين يحفظونها من أى تحريف أو تبديل . . أو اغفال لذكر أحكام الله . . ولكن الله سبحانه وتعالى اختص القرآن الكريم بأنه يحفظه .

وبذلك بقى القرآن الكريم أربعة عشر قرنا . . وسيبقى إلى يوم القيامة . . محفوظا من أى عبث بشرى . . أو أى تدخل من أى إنسان كان . . ومهما بذلت من محاولات . . ومهما دبر . . فإن أحدا لن يستطيع أن يمس القرآن . . لأن الله سبحانه وتعالى يحفظه . . ويقيه من أى تحريف أو تدخل بشرى . . ولذلك فإنك ترى مثلا أنه بينما خط الحفاظ على المنهج من المسلمين يتقلص مع مرور

الزمن . . أى أن عدد المسلمين الذين يتبعون المنهج . . ويعيشون . . يقل مع الزمان . . ومع المغريات المادية . . فإن خط حفظ القرآن يعلو ويتضاعف . . فتجد ألمانيا تطبع القرآن بشكل جميل فى لوحة واحدة . . مع أنها لا تؤمن بالقرآن . . وتجد اليابان مثلا . . وايطاليا . . تطبعان المصاحف طباعة متقدمة . . ونجد كل إنسان يضع المصحف فى جيبه . . أو فى سيارته . . أو آيات قرآنية تعلق على الصدور . . وتعجب أنت من أن الخط الإيمانى يميل إلى الهبوط . . بينما خط حفظ القرآن يعلو ويزداد . . نقول لك . . إنه لو كان الخطان يتبعان ارادة البشر . . لكان من المنطقى أن يسيرا فى اتجاه واحد . . ولكن هناك خطا يتبع الارادة البشرية وهو الإيمان . . وخطا يتبع ارادة الله سبحانه وتعالى . . وهو حفظ القرآن مصداقا لقوله تعالى :

« إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »

أما الخط البشرى فيتناقص . . وأما الخط الإلهى فيعلو ويزداد . . وهذه احدى معجزات القرآن . .

« إلا أن يشاء الله »

ثم تأتى السورة الكريمة إلى قوله تعالى :

« إن هو إلا ذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين »

إن هو إلا ذكر للعالمين . . أى أن هذا القرآن نزل ليذكر الناس بالطريق المستقيم . . ليعلمهم طريق العبادة . . والحياة الطيبة الآمنة على الأرض . . فالقرآن للأحياء وليس للموتى . . ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى وضع فيه السعادة فى الدنيا والآخرة . . وهو موجود ليذكر الناس حتى لا يكون لأحد حجة على الله سبحانه وتعالى فى أنه لم يعرف طريق الهداية . . أو جهل هذا الطريق . . فالقرآن موجود لكل من يريد أن يتذكر . . إلا أن الله سبحانه وتعالى يقول :

« لمن شاء منكم أن يستقيم »

إذن هو لم يطلق التذكرة هنا لكل البشر . . ولكنه حددها . . ان هذا القرآن أتى ليكون مذكرا لكل من أراد الاستقامة . . فإذا أمسكت القرآن . . وبدأت تدرس تعاليمه . . بهدف الاستقامة . . هداك الله سبحانه وتعالى إلى الطريق المستقيم . . وإلى الخير . . ثم تأتى الآية الكريمة :

« وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين »

وهذه الآية تحدد طريق المشيئة . . بأنها من الله سبحانه وتعالى . . وهى تثير جدلا كثيرا . . وبعض الناس يرى فيها سلبا لحرية الاختيار التى أعطاها الله للبشر . . ذلك أنه إذا لم أصل . . فقد شاء الله ألا أصلى . . وإذا تركت الصوم . . فقد شاء الله أن أترك الصوم . . وإذا لم أزك فهذه مشيئة الله . . فلماذا يحاسبنى . . وهذا القول فيه مغالطة شديدة . . ولنبدأ الحديث بالتفصيل .

الله سبحانه وتعالى حين خلق الإنسان . . جعل له أشياء . . هو مخير فيها . . وأشياء لا اختيار له فيها . . ومعظم الأشياء خلاف العبادات . . والتكليف . . وأمور الحياة . . الإنسان غير مخير فيها . . شكل الإنسان . . هل هو طويل أم قصير . . ذكى أم غبى . . أبيض أم أسود . . قوى البنية أم ضعيف البنية . . من هو أبوه . . من هى أمه . . ما هو بلده الذى يولد فيه . . كل هذا لا اختيار للبشر فيه . . الكون كله بشمسه وقمره . . ونجومه وجباله . . وأرضه ونظامه البالغ الدقة . . الأجل والموت والحياة والصحة . . والمرض . . كلها عوامل لا تخضع للمشيئة البشرية . . رغم ما يدعيه عدد من الناس . . فالطبيب هو واسطة الشفاء . . وليس هو معطى الشفاء . . والله أحيانا يهدى أصغر الأطباء إلى الداء فيعالجه . . وأحيانا يعمى أكبر الأطباء عن الداء . . فلا يستطيع أن يقدم العلاج .

الجسد البشرى لا دخل للإنسان فيه . . فى أجزاء كبيرة منه . . فالقلب يدق

سواء أردت أنا أو لم أرد . . والمعدة تعمل على هضم الطعام دون أن أصدر إليها أمرا بذلك . . والدورة الدموية تسير وأنا لا أكاد أحس بها . . وأشياء كثيرة فى الجسم تمضى دون ما إرادة منى . . بل انها فى كثير من الأحيان تؤدى وظيفتها وأنا نائم . . لا أدرى شيئا . . إذن هذه الأشياء كلها لا اختيار لى فيها . . ولا حساب عليها .

نأتى بعد ذلك إلى الأشياء التى تدخل فى نطاق الحساب . . وهى الحياة . . بكل معاملاتها . . وكل ما يدور فيها . . الله سبحانه وتعالى قد وضع لى أشياء . . وترك لى الخيار . . أى أن أختار بين البدائل . . ولم يضع عليها قيودا فى افعل ولا تفعل . . فأنا مثلا أستطيع أن أضع أثاثا فى المكان الذى أعيش فيه . . يلائم ذوقى . . وليس هناك حساب . . أو أن أختار لونا معينا لثوب ارتديه . . أو أن أختار شكل الثوب . . أن أركب القطار أو الباخرة . . أو الطائرة . . أو السيارة . . أختار وسيلة المواصلات . . كل هذا يدخل فى المنطقة الاختيارية للإنسان . . ولكن لا عقاب عليه . . لأن الله لم يحدد لى شيئا . . وترك كل ذلك لاختيارى .

ثم ندخل بعد ذلك فى منطقة التكليف . . وهى المنطقة التى عليها الحساب . . التى قال لى الله سبحانه وتعالى فيها . . افعل ولا تفعل . . مادام الله سبحانه وتعالى قد قال افعل . . فلابد أنه أعطانى القدرة على الفعل . . ومادام الله قد قال لا تفعل . . فلابد أنه أعطانى القدرة على عدم الفعل . . وهنا منطقة الحساب . . وهذه تخضع للمشيئة البشرية بلا قيود . . بل إن هناك قيودا قد وضعها البشر على هذه المنطقة الاختيارية . . فجاء الله وأبطل هذه القيود من الحساب . . حتى يكون العدل مطلقا . . فإذا أتيت بإنسان . . وظللت أعذبه عذابا فوق طاقته . . ليقوم بفعل منكر نهى عنه الله . . فإنه إذا قام بفعل هذا المنكر غفر الله له . . لأنه لم يتم بالارادة الحرة النابعة من هذا الإنسان . . بل تم بالتعذيب . . وتصل هذه المسألة إلى حد الفتيات اللاتى يكرهن على أعمال سيئة

بالتعذيب يغفر الله لهن . . مادام هذا ناتجا عن تعذيب واكراه . . وليس عن ارادة حرة . . بل إن من يكره ليعلن عدم إيمانه . . وهو فى قلبه مؤمن . . يكتب عند الله مؤمنا .

مشيئة الله
وأحكام الاختيار

إذن فما معنى . .

« وما تشاءون إلا أن يشاء الله »

انني سأقدم هنا معنيين فقط . . المعنى الأول أن ما تشاءون إلا أن يشاء الله . معناه أن كل شيء فى هذا الكون خاضع لمشيئة الله سبحانه وتعالى . . وقد شاء الله أن يعطيكم الاختيار الحر فى عدد من المسائل . . ترك لكم أن تفعلوا فيها ما تريدون . . ولو شاء الله سبحانه وتعالى . . ما أعطاكم هذا الاختيار . . فهناك خلق من خلق الله نراه أمامنا لا يخضع لأى اختيار . . كل ما خلقه الله فى هذه الأرض . . من جماد . . ونبات . . وحيوانات . . كلها مقهورة تؤدى مهمتها فى الكون بلا اختيار . . والملائكة الذين لا نراهم . . هم أيضا لا اختيار لهم . . والله سبحانه وتعالى قد خلق كل هذه المخلوقات . . ومشيئته أن تكون مقهورة على ما تفعل . . ولذلك سقط عنها الحساب . . وخلق الجن والإنس . . وشاء الله أن يكون لهم اختيار فى بعض أمورهم . . ولذلك جاء هذا الاختيار ليس محتاجا للتحدى . . ولكنه محتاج لما يزيده إيمانا . . وقربا من الله لمشيئة الله سبحانه وتعالى . . ولو لم يكن الأمر كذلك . . فأرونى إنسانا يستطيع أن يكون له اختيار . . فيما لم يشأ الله سبحانه وتعالى أن يعطيه الاختيار فيه . . أرونى إنسانا قادرا على أن يتنفس . . أو لا يتنفس . . طبقا لاختياره هو . . ويبقى على قيد الحياة . . أرونى إنسانا يستطيع أن يأمر معدته أن تتوقف عن هضم الطعام عندما يشاء . . أو أن تقوم بهضم الطعام إذا أصيبت بمرض منعها عن أداء وظيفتها . . أرونى إنسانا يستطيع أن يتحكم فى لونه . . أو فى أمه . . ومن تكون . . أو أبيه

ومن هو . . أو فى أى بلد يولد . . أو أن يعطى الحركة لقدميه أو يديه باختياره هو إذا أصابها بالشلل .

كل هذه الأشياء . . ولقد أتيت بها من داخل الجسد البشرى . . لا تخضع لاختيار البشر حتى ولو أرادوا ذلك . . لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى قد شاء ألا تخضع . . كما شاء للإنسان أن تكون له إرادة حرة فى منطقة معينة من حياته من افعل ولا تفعل . . أرونى إنسانا يستطيع أن يوقف الشمس عن الظهور أو يمنع الليل من المجىء . . أو يوقف الأرض عن دورانها . . كل هذا شاء الله سبحانه وتعالى ألا يكون للبشر فيه مشيئة . . إذن فقول الله :

« وما تشاءون إلا أن يشاء الله »

لا يتعارض أبدا مع المشيئة الحرة للبشر . . ذلك إن الله شاء فى أشياء ألا تخضع لاختيار البشر . . وخرجت فعلا عن هذا الاختيار . . وشاء فى أشياء أخرى أن تبقى داخل الاختيار إلبشرى . . فكانت مشيئة الله نافذة . . وكان الاختيار الحر للبشر فى عدد من أمور حياتهم . . إذن فهذا الاختيار الحر يخضع لمشيئة الله . . لأن الله شاء أن يكون للبشر اختيار فى هذه المنطقة . . ولو كانت ارادة الله غير ذلك لما استطاع بشر أن يكون له اختيار .

وبذلك يكون حرية الإنسان داخل المشيئة الإلهية . . لأن الله شاء له أن يأخذ هذه الحرية ليحاسبه عليها . . ثم بعد ذلك . . نأتى إلى النقطة التالية . . وهى أن الله سبحانه وتعالى علم أن هذه المشيئة ستفسد البشر . . وتبعدهم عن نور الله . . فالاغراءات كثيرة . . والإنسان خلق ضعيفا . . وهنا جاءت رحمة الله ليعطى شعاعا من نوره . . لكل إنسان يضل الطريق . . هذا الشعاع يهدى إلى الحق . . ويرينا طريق الحياة السعيدة المطمئنة فى الدنيا . . والآخرة . . كيف يحدث ذلك ؟.

ما هى الأمانة
التى قبلها الانسان

وقبل أن نكمل الحديث عن هذا الموضوع . . أحب أن أتعرض إلى نقطتين أساسيتين . . إن حرية الاختيار التى أعطاها الله سبحانه وتعالى للإنسان عبر عنها فى القرآن الكريم بكلمةالأمانة . . فقال الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾

سورة الأحزاب

ما هى الأمانة . . معناها العام . . هى أن يعطيك إنسان شيئا تحفظه له عندك كأمانة . . ويشترط لذلك أن يكون هذا العطاء بينك وبينه بلا شهود . . فإن كان هناك شهود . . لم تصبح أمانة . . ولكنها تصبح دينا . . وإذا كانت هناك ورقة مكتوبة لا تصبح أمانة . . ولكنها تصبح دينا مسجلا على ورقة . . إذن شرط الأمانة أن تكون بينك وبين الشخص الذى ائتمنك دون شهود . . بحيث تستطيع أن تنكرها إذا أردت . . وأن تفى بها إذا أردت . . وفى كلتا الحالتين يكون الوازع هو الحق وحده . . وهو الاحساس بوجود الله سبحانه وتعالى . . وبأنه هو المطلع .

إذن فالأمانة التى عرضها الله سبحانه وتعالى على الإنسان . . عرضها قبل ذلك على عدد من مخلوقاته . . لكن هذه المخلوقات جميعا رفضت أن تحمل الأمانة . . لماذا ؟ . . لأنها أحست أنها لن تستطيع أن تفى بها . . فالنعم التى أعطاها الله سبحانه وتعالى لنا لها حق أداء . . وهذه المخلوقات كلها أحست بعجزها عن حق أداء الشكر لله على نعمه . . ولذلك رفضت . . وجاء الإنسان . . وقبل حمل الأمانة . . قَبِلَ أن يأخذ النعم . . ويؤدى عنها حق

الشكر . . وحق العبادة لله . . وأن يكون فى ذلك مختارا . . يفعل أو لا يفعل . . وكما تفرح أنت إذا ترك إنسان عندك مبلغا ضخما كأمانة . . فإذا احتجت إلى شيء . . كان من السهل أن تمد يدك وتحصل على ما تريد . . ثم يأتى وقت المطالبة . . فلا تستطيع أن تفى بالأمانة التى حملتها . . فقد فرح الإنسان بأن لديه رصيدا من النعم التى سخرها الله سبحانه وتعالى له . . يستطيع أن يسحب منها كما يشاء . . وعندما يريد . . دون أن يؤدى حقها لله . . حق شكر . . وحق عبادة . . وحق طاعة . . ولقد كان الإنسان حين فرح بذلك ظلوما . . لماذا ؟ . . لأنه ظلم نفسه . . فطلب ما لا تقدر عليه هذه النفس الضعيفة أمام مغريات الكون . . ولأنه ظلم نفسه . . لأن البعد عن منهج الله سبحانه وتعالى لا يتم إلا بظلم . . فلو اتبعنا جميعا الحق . . ما بعدنا عن منهج الله . . ولا فسدت الأرض . . فالحق هو ما يطالبنا به الله . . فإن اتبعناه . . فنحن لم نخن الأمانة . . لأننا اتبعنا منهج الله فى الأرض . . ولكن متى نخون الأمانة ؟. عندما نظلم . . نأخذ حق الغير . . نمد أيدينا إلى مال حرام . . نعتدى على حرمة غيرنا وماله وعرضه . . حينئذ نكون قد ظلمنا الناس . . وخنا الأمانة . . فالظلم هنا يرتبط بالبعد عن منهج الله . . هو ظلم للنفس . . بقيادتها . . إلى غير طريق الحق . . وهو ظلم للناس . . بالاعتداء على حقوقهم . . فالقوى يسلب الضعيف حقه . . والغنى يستغل الفقير . . وتفسد الدنيا من ظلم البشر .

والإنسان عندما فعل ذلك كان جهولا . . لماذا ؟ . . لأنه ظن أنه سيكسب شيئا . . فقاد نفسه إلى الهلاك دون أن يكسب أى شيء . . صور له جهله أن الدنيا هى الأساس . . وصور له غروره أنه يستطيع أن يحصل على ملك لا يبلى . . أى لا يزول . . وصور له قصر نظره أنه يستطيع أن يخلد فى الأرض . . وأن يعيش إلى ما لا نهاية . . وأن هناك من الوسائل البشرية ما يمكن أن يؤخر الموت . . ويعطى حياة طويلة . . كل هذا هو شعور الإنسان الذى يصوره له جهله . . ذلك أن الإنسان رغم معرفته الأكيدة . . بأنه ميت

لا محالة . . فإنه يتصور أن يموت الناس جميعا إلا هو . . ويحس حتى وهو فى أحلك الظروف . . وهو يصارع الموت . . أنه سينجو . . ولو أن كل إنسان أحس يقينا بالموت . . لتغيرت الدنيا كلها .

إذن . . فالإنسان حمل الأمانة . . أمانة الشكر على عطاء الله . . الشكر على نعمة الحياة . . الشكر على رزق الله . . الشكر على أن الله سبحانه وتعالى يبارك له . . ويعطيه . . ويرزقه . . وينجيه من كل سوء . . ويدفع عنه كل شر . . حمل الأمانة . . التى تلزمه بالحق بين الناس . . وبالعدل فى حكمه . . وباحترام حقوق الآخرين مهما كانوا ضعفاء . . حمل هذه الأمانة . . ونزل إلى الأرض . . فماذا فعل . . استطاع الشيطان أن يصل إلى قلبه . . وصور له أنه يستطيع أن يملك . . وأن يملك بلا حساب . . بينما فى الحقيقة أن ملك الإنسان ينحصر فيما ينفقه لحاجته . . وأحيانا تجد إنسان غنيا تقدم به العمر . . ومع ذلك هو يحاسب عن كل قرش أنفقه . . ويحاول أن يوفر بقدر ما يستطيع . . وتتساءل أنت وتتعجب : كيف تكون هذه الأموال كلها عند هذا الإنسان . . ثم يقتر على نفسه هذا التقتير . . وتجد أنها مسألة لا تتمشى مع حكم العقل ولا مع منطق الفكر السليم . . نقول لك ولكنها تتمشى مع قدر الله . . فالمال رغم أن هذا الرجل قد كسبه . . ليس رزقه . . ولو كان رزقه لتمتع به . . ولكنه مجرد حارس عليه ليسلمه إلى صاحبه . . وهو فى دوره هذا بالحراسة على هذاالمال . . إنما يأخذ منه رزقه فقط . . ويبقى بقدرة الله . . أمينا على الجزء الباقى . . حتى يوصله إلى أصحابه . . فيأخذوه . . وربما انفقوه فيما لا ينفع ولا يجدى .

وجهل الإنسان الحقيقة

إذن الإنسان حين قبل الأمانة . . وقبل أن يحملها . . لم يقدر أنه سيأتى يوم من الأيام يسأله الله عنها . . وأين بدد الأمانة . . وصور له جهله أن ما يتمتع به فى الدنيا . . هو الذى سيفوز به . . وأنه إذا ملك أكثر من حاجته أمن غده . .

وأصبح آمنا مطمئنا . . بينها الحقيقة . . أن الأمانة فى وجه الله وحده . . وأن الإنسان مهما ملك . . قد يأتى عليه يوم وليلة ينزع فيها كل ملكه . . ويصبح لا يملك شيئا . . وأمامنا الأمثلة فى كل مكان فى العالم مما يحدث ،

والله سبحانه وتعالى أعطى للإنسان حرية الاختيار بالمشيئة . . أى لأن الله شاء أن يكون الإنسان حرا فى عدد من جوانب حياته . . وفى نفس الوقت حمله أمانة الطاعة والشكر لله . . وجعل هذه الأمانة بينه وبين الله سبحانه وتعالى . . لا يطلع عليها فرد . . ولذلك كانت من دقة القرآن الكريم . . أنه أطلق لفظ الأمانة على ما حمله الإنسان . . لماذا ؟.

لأنه لا يوجد إنسان يعرف . . ما بين الله وبين البشر . . إلا الله سبحانه وتعالى . . فأنا قد أتظاهر بالصلاح . . وأذهب إلى المسجد وأصلى . . فى كل وقت . . ولكن هذا التظاهر لا يكون عبادة . . وإنما يكون لأحصل على سمعة طيبة . . بين الناس . . أو لييسر لى أمرا من أمور الدنيا . . فإذا خلوت إلى نفسى عصيت الله . . وإذا كنت بعيدا عن الناس . . لم أراقب الله فيما أعمل . . فكأن المسألة كلها تظاهر لفائدة دنيوية . . ولكننا ونحن نرى الظاهر وحده نحكم على هذا الإنسان بالصلاح والتقوى . . لأننا لا نعرف الجزء الباقى من حياته . . وقد يذهب إنسان إلى الحفلات الخيرية . . يعلن أمام الناس عن تبرعه بمبلغ من المال للخير . . وهو يريد بذلك ثلاثا : أن يقول الناس أنه رجل الخير والبر والتقوى . . هذه واحدة . . وأن ينبهر الناس بغناه وثروته التى تمكنه من التبرع بهذه المبالغ للخير . . فيقول الناس : لابد أنه غنى . . لابد أن عنده أموالا كثيرة . . هذه ثانية . . أو يكون هذا تقربا لغير الله سبحانه وتعالى . . كأن أدفع هذا المبلغ لرجل ذى نفوذ باسم الخير ليقضى له مصلحة دنيوية . . أو يكون لى طلب فى جهة ما . . فأحاول أن أرضى صاحب هذه الجهة . . فأتبرع لمشروع يديره هو . . والمهم فى هذا كله . . أننى أقصد غير وجه الله . . ذلك أن الخير الذى أفعله لوجه الله سبحانه وتعالى . . تعطى فيه يمينك مالا تدريه شمالك . . أى أنه يحاط بالكتمان الشديد حتى لا يشتبه فيه أية ذرة شك . . من أن القصد به

هو غير الله . . ذلك أن الله سبحانه وتعالى هو أغنى الشركاء عن الشرك . . فإذا أشركت معه أحدا فى عمل من الأعمال . . فإن الله سبحانه وتعالى يستغنى عن هذا العمل ولا يقبله . . ويتركك لما أشركت به .

ولذلك استخدم الله سبحانه وتعالى لفظ الأمانة . . التى تحدثنا عنها . . وقلنا انها تكون بين طرفين . . ولا يعرف ثالث عنها شيئا . . كذلك العبادة . . وكل عمل يقصد به وجه الله . . يكون بين العبد وبين الله . . فإذا أخذ أى صورة من علانية الأداء . . أو أية صورة من المظهرية فسد . . كذلك لا يحكم على هذا العمل من مظهره . . فلا يقال عن إنسان أنه رجل البر والتقوى . . لأنه يجرى وراء أصحاب النفوذ يعطيهم ماله باسم الخير . . ليحقق غرضا دنيويا . . ولا يقال رجل عابد لمجرد أنه يتظاهر بالتقوى . . بل لابد أن يكون التصديق بالعمل . . وفى آخر المطاف . . نجد أن الإنسان مهما برع . . ومهما كان . . لا يستطيع أن يحكم حكما صحيحا . . على علاقة إنسان آخر بالله سبحانه وتعالى . . بل إن الحكم لله وحده فى هذه العلاقة . . لأن الإنسان أحيانا يخفى فى صدره ما لا يعلمه أحد إلا الله . . ولذلك قال الله عن يوم القيامة :
« يوم تُبلى السرائر » .

أى يوم يكشف الله عما فى الصدور . . ويظهره . . فنعرف من كان يقول ما لا يفعل .

أحداث الحياة . . والمشيئة

على أننا إذا دخلنا فى نقاش حول المشيئة الإلهية . . واختيار الإنسان فإننا نجد جدلا كثيرا . . ولن ندخل فى هذا الجدل الذى هو جهل لا يضر . . وعلم لا ينفع . . وإنما فقط سأعطى رأيى فى هذا الموضوع . . بما يوضح بعض جوانبه التى تجعل الإنسان يحس بمسئولية اختياره . . أو بأنه محاسب على هذا الاختيار فى الآخرة . . وهذا هو المهم .

إذا أردنا أن نقسم أحداث الحياة . . فإننا يمكن أن نقسمها إلى ثلاثة أشياء : أشياء عامة . . فعل يحدث وليس لى دخل فيه . . كالكون مثلا بكل آياته : شمسه وقمره ونجومه . . وأرضه وهوائه . . هذه ليس لى دخل فيها . . وبالتالى لا تدخل فى دائرة النقاش . . وفعل يقع علىّ . . وليس لى دخل فيه . . كان أكون سائرا فى الطريق . . فتصدمنى سيارة . . أو أصاب بمرض . . أو ينهدم المنزل الذى أعيش فيه . . أو أمشى فأتعثر فى الطريق وأسقط . . فأصاب إلى غير ذلك من ملايين الأفعال فى الأرض . . تلدغنى حشرة مثلا . . أو أفقد وظيفتى . . لأن الشركة قد أفلست . . كل هذه أشياء لا دخل لى فيها . . ولا تدخل فى منطقة الحساب . . لماذا ؟ . . لأنها أشياء تقع علىّ دون ارادة . . دون ما فعل منى . . ولذلك فهى أحداث لا تدخل فى دائرة افعل ولا تفعل .

وإذا أخرجنا أحداث الكون بهذه الطريقة . . بقى بعد ذلك فعل لى فيه ارادة . . وهذا الفعل أما أن أقوم به أنا . . وإما يفرض على . . مثلا إنسان جاء واعتدى على بالضرب أو بالسب . . لم أكن أنا أريد أن أقاتل . . ولكن هذا الفعل فرض على . . إنسان جاء ليسلبنى شيئا لم أكن أنا أريد أن أسلب . . ولكن هذا الفعل فرض على . . إلى آخر الأفعال التى تفرض على البشر بالأحداث . . هذا فعل وقوعه على لا يحملنى ذنبا . . لأننى أنا الشخص المعتدى عليه . . ولكنه يحمل ذنبا على المعتدى . . وحينئذ يحل القصاص . . أى يجوز لى رد الاعتداء دون أن أرتكب إثما . . ورد الاعتداء هنا يتم بالارادة الحرة . . فأنت تستطيع أن تضرب إنساناًبالقلم . . كما ضربك بالقلم . . وتستطيع بدلا من أن تضربه قلما . . أن تحطم ضلوعه . . وتستطيع أن تقتله . . إذن رد الفعل هنا يختلف . . وهكذا يجىء تشريع الله من افعل ولا تفعل . . محاولا اشاعة الحب بين الناس بدلا من الكراهية والبغضاء . . وسفك الدماء . . فيحرص على العفو عن المسىء . . ويحاول أن يجعل رد الإساءة لا يزيد عن حجم الاساءة نفسها . . حتى لا تتطور الأمور . . إلى ما هو أبشع . . مما يفسد الدنيا . . ويملأها حقدا وبغضاء .

فأنت مثلا إذا ضربك إنسان ضربة واحدة بالعصا . . وأمسكت العصا وضربته . . تكون فى هذه الحالة قد رددت العدوان بمثله . . وتجد أن هذه القضية لا تثير أحدا . . لا من أهلك ولا من أهله . . فمادام الرد مساويا للفعل . . فإنه نادرا ما يصيب أحدا من البشر بالانفعال . . لدرجة أن تتسع الخصومة ليدخل فيها عدد كبير من الناس . .

ولكن إذا ضربك إنسان بالعصا . . فأمسكت بندقية وقتلته . . حينئذ يكون رد الفعل عنيفا . . وتجد أكثر من إنسان من أهل القتيل يريد أن يقتص منك . . وهكذا تدخل مشيئة الله سبحانه وتعالى وهو المشرع الحكيم العليم ليمنع سفك الدماء . . والبغضاء والمشاحنة . . فجعل العفو له ثواب كبير . . وكتمان الغيظ عملية محببة إلى الله . . وفى نفس الوقت . . وحتى لا يشجع العدوان على اطلاقه . . جعل الرد مماثلا للعدوان تماما :

« فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » . .

المشيئة الحرة

نأتى بعد ذلك للنفس البشرية وأعمالها . . والتى تقع منها اختيارا أو ترد خطرا . . ولكنها تفعل ما تفعل . . بمشيئتها الحرة . . ودون ما ضغط عليها . . هذه الأعمال الاختيارية مقسمة إلى قسمين . . قسم لا ثواب ولا عقاب عليه . . كأن تحب أن تناول صنفا معينا من الطعام أحله الله لك . . أو تختار نوعا من الفاكهة . . أو تؤثث بيتك بالطريقة التى تريد . . إلى آخر هذه الأعمال التى لم يتعرض لها القرآن بافعل ولا تفعل . . هذه أنت حر فيها . . ليس عليها عقاب إذا ما فعلتها . . ويبقى بعد ذلك القسم الصغير من الأعمال الاختيارية التى أنزل فيها الله أحكاما بافعل ولا تفعل . . هذا هو الاختبار الايمانى فى الحياة . . اختبار لحرية الإنسان فى الفعل . . والله سبحانه وتعالى لا يحاسب بشرا إلا على عمل حر قد قام به . . وأنت لكى تقوم بعمل . . لابد أن تتوافر لك عدة مقومات . .

الزمن مثلا الذى سيتم فيه العمل . . القدرة على هذا العمل . . الوجود لإتمام العمل . . والامكانيات . . إلى آخر ذلك . . ولنوضح هذه النقطة قليلا . .

هب أننى أريد أن أبنى عمارة . . لابد أن أهيىء الأرض أولا . . وهذه الأرض قد تكون موجودة . . أو غير موجودة . . فإذا وجدت حددت زمان العمل . . أنا بتحديد الزمن . . أتجاوز طاقتى البشرية . . ذلك لأننى لا أستطيع أن أجزم أننى سأكون موجودا فى الغد . . أى أننى لا أستطيع أن أقول جزما أننى سأذهب إلى السوق غدا لأشترى شيئا . . أو سأبدأ فى بناء هذه العمارة غدا . . لماذا ؟ . . لأننى لا أعرف إذا كنت سأكون على ظهر الدنيا غدا . . أو رحلت عنها . . هذه واحدة . . ولا أضمن ظروف العمل . . فقد أكون على ظهر الدنيا . . وأذهب إلى مكان العمارة . . ثم بعد ذلك لا يحضر الرجال الذين سيقومون بالبناء . . ولاأستطيع أن أقوم بالبناء وحدى . . وأجعله يقوم . . وحتى لو وجدت أنا . . وجاء الرجال . . فلا أضمن أن يأتى سبب خارج عن ارادتى . . ليمنع اتمام العمل . . كأن يأتى أحد الناس . . ويوقف البناء بدعوى أن هذه الأرض ملكه . . أو تستولى الحكومة على الأرض فجأة . . أو يصدر قانون يمنع البناء على هذه الأرض . . أو تكون أوراقى غير مستوفاة بشكل لم أتنبه إليه . . أو يأتى أى إنسان ويقيم اشكالا يمنعنى من البناء . . إذن رغم أننى أملك المشيئة وهى وجودى لحظة البناء . . وأملك القدرة . . وهى هؤلاء العمال الذين جاءوا للبناء . .

أملك الأرض والأسمنت والحديد . . فقد لا يتم العمل . . إذن من وحده الذى يستطيع أن يتمم العمل . . ولا يقف فى طريقه حائل . . انه الله سبحانه وتعالى . .

الله وحده هو الذى يستطيع أن يقول للشىء كن فيكون . . فهو إذا أراد . . لا يمكن لفرد أن يأتى ويمنع هذه الارادة . . وهو إذا شاء . لديه القوة وحده . .

لينفذ ما يريد . . دون الاستعانة بأحد فى الدنيا كلها . . وهو العزيز القادر الذى لا تستطيع أى قوة مهما كانت أن تأتى لتوقف عملا قال له الله سبحانه وتعالى له : كن . .

إذن الذى يملك المشيئة الحقيقية فى أن يتم عمل فى الأرض هو الله سبحانه وتعالى . . ولكننا نحن البشر لا نملك إلا مشيئة مجازية . . وقد نخرج فى الصباح . . وفى نيتنا أن نفعل كذا وكذا . . ثم لا يتم شىء من هذا كله . . لأننا كما قلت لا نملك القدرة لإتمامه . ولأن هناك ظروفا تأتى لكل منا مهما علا شأنه . . وبلغ سلطانه لتمنع تنفيذ عمل يريد أن ينفذه . . حتى الحاكم الذى له الأمر والنهى . . والكل يطيعه . . لا يستطيع فى أحيان كثيرة أن ينفذ ما يريد . . هذه هى مشيئة العمل .

بقيت بعد ذلك النقطة الأخيرة . . وهى نقطة الحساب . . وهذه النقطة عن الأفعال . . التى حددها الله سبحانه وتعالى فى منهج الإيمان بافعل ولا تفعل . . قد تأتى أنت هذه الأفعال مكرها . . كأن يجلدك رئيس العصابة لتسرق . . وتضطر كارها . . وتحت شدة التعذيب تسرق . . وتحاول أن تهرب . . فيعيدك . . مادمت تأتى هذا العمل مكرها . . فقد أسقط الله عنك الحساب . . حتى فى الإيمان . . مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى . . فى الاكراه على الكفر :

« إلا من أُكرِهَ وقلبه مطمئن بالإيمان » .

إذن الإكراه يسقط الحساب . .

إنها فى القلب

تبقى بعد ذلك الارادة الحرة . . ولقد شاء الله سبحانه وتعالى أن يضع هذه الارادة الحرة فى مكان لا يستطيع أن يسيطر عليها أحد فى العالم . . انها فى القلب . . وما هو داخل القلب أو النية لا تستطيع الدنيا كلها أن تصل إليه . .

فأنت قد تكره انسانا . . وربما تحت التعذيب . . أو التهديد . . أو الخوف . . تتظاهر بالحب له . . ولكن الحقيقة أنك تكرهه من داخل قلبك . . وتبقى هذه الحقيقة لا تستطيع أن تمسها الدنيا كلها . . أنت لا تريد أن تفعل شيئا قد يكرهك الناس على فعله . . ولكنك فى قلبك تستنكره وتنكره . . والله يعلم ما تخفى الصدور .

إذن الحساب هنا على الإرادة الحرة . . التى لا يستطيع بشر ولا قوة فى الأرض أن تجبرك على شيء فيها . . ولكنها متروكة لك وحدك . . وهى لا تتغير ولا تتبدل إذا كنت غنيا أو فقيرا . . مريضا أو صحيحا . . كبيرا أو صغيرا . . قويا أو ضعيفا .

هذه المنطقة بالذات التى يتم على أساسها الحساب . . تركها الله سبحانه وتعالى حرة لك . . هذه هى منطقة الأمانة التى حملتها . . ولماذا هى أمانة . . لأن ما فيها بينك وبين الله وحده . . لا يستطيع إنسان أن يفتح صدرك . . ليعرف حقيقة ما فيه . . فما فى القلب هو سر بين الله والعبد . . وهو الأمانة التى حملها الإنسان فى الأرض . . فإن فعل إثما بإرادته الحرة . . وقلبه . . مصدقا لعمله بلا إكراه . . استحق العقاب . . وإذا فعل خيرا وقلبه مصدق لعمله بلا محاولة للتظاهر أو التفاخر . . أو الكبر . . أثيب . . وفى هذه المنطقة وحدها . . منطقة القلب والأمانة . . يكون الشعور الإنسانى حرا وحقيقيا . . ويكون الجزاء من نوع العمل . .

إذن الله سبحانه وتعالى . . حينما أعطانا الاختيار . . حدد منطقة الاختيار فى أعمالنا . . ثم جاء إلى هذه المنطقة . . وهى منطقة الاختيار ليخرج منها عددا من الأعمال ليس فيها تشريع . . وترك لك حرية الاختيار بلا ثواب ولا عقاب . . ثم جاء لمنطقة الأمانة . . وجعل الثواب والعقاب فيها . . لماذا ؟ .

لماذا جعل الله سبحانه وتعالى القلب منطقة الثواب والعقاب . . لأنه الجزء الوحيد الذى لا يسيطر على مشاعره أحد إلا أنت . . فما فى قلبك هو ملكك وحدك . . بإرادتك وحدك ولا يستطيع أى فرد أن يضع إجبارا فيه . . وبذلك يكون الحساب عدلا . . لا يدخل فيه ظلم أبدا . . ولماذا قال افعل ولا تفعل . . لأن منهج الايمان به . . والخالق هو الذى يحدد كيف يعبده خلقه . . ولأنه وضع فى هذا المنهج أشياء تمنع فساد الدنيا . . وتصلح الحياة . . كما سبق أن قلت .

والله سبحانه وتعالى حين يأمرنا ألا تمتد أيدينا لمال غيرنا . . إنما يحمى مالى كفرد من المجتمع كله . . ولكن إذا ترك الله سبحانه وتعالى الاعتداء على المال بلا عقاب . . فكأنه أباح للدنيا كلها أن تعتدى على مالى . . ولك أن تتصور ماذا يمكن أن يحدث فى هذه الحالة .

وإذا حمى الله سبحانه وتعالى عرض أحد . . فهذه الحماية ليست قيدا علىّ . . وإنما هى ميزة كبيرة لى . . ذلك أنه إذا أباح لى الاعتداء على عرض غيرى . . فكأنه أباح للمجتمع كله الاعتداء على عرضى . . ولك أن تتصور أيضا ما يمكن أن يحدث فى الدنيا إذا كان ذلك هو الشرع والقانون . . وانى أذكر أن رجلا جاء إلى رسول الله . . وقال له أريد أن أسلم . . ولكننى أحب النساء . . ولن أقلع عن ذلك فقال له رسول الله . . وهو المعلم لأمته . . أتحب أن يفعل أحد هذا فى أختك . . قال : لا . . قال : أتحب أن يفعل أحد هذا فى أمك . . قال : لا . . قال : أتحب أن يفعل أحد هذا فى زوجتك . . قال : لا . . قال : أتحب أن يفعل أحد هذا فى ابنتك . . قال : لا . . فرد الرسول الكريم كلنا كذلك يا أخا العرب .

وهكذا بين الرسول حكمة التشريع فى أنه قيد إنسانا من عدوان على عرض إنسان آخر . . فقد وفر الحماية لأمه وأخته . . وابنته . . وزوجته . . وأظن أننا لو فاضلنا بين الاثنين . . لأخذنا القيود التى وضعها الله سبحانه وتعالى .

قيود ولكنها تحميك

وهكذا وضع الله قيودا ليحمى المجتمع . . ويوفر للإنسان المؤمن الحياة الطيبة الآمنة على الأرض . . فيعيش مطمئنا إلى أن أحدا لن يعتدى على ماله . . أو عرضه . . أو يعتدى عليه وعلى حياته وأسرته . . وأطفاله . . ولو فهم الناس هذه القيود لاحسوا بنعمة الله الكبرى عليهم . . بل إن الدول التى لا تتخذ الإيمان سبيلا . . اضطرت أن تفرض مثل هذه القيود . . وان كان العقاب مختلفا . . لتحمى المجتمع . . وليستطيع هذا المجتمع أن ينمو ويتقدم . . فإذا كان الإنسان يشكو من قيد قد وضعه الدين عليه . . أو على تصرفه . . فليتذكر الميزة التى أعطاها له هذا القيد ليعرف بعد ذلك أن الدين بأوامره ونواهيه ليس قيدا . . ولكنه حماية . . وليس عقابا . . ولكنه اصلاح وصلاح . . وهو أن قال لا تفعل . . فلأن لا تفعل هذا . . هى حماية للإنسان فى المجتمع . .

مرة أخرى إلا أن يشاء الله

وأختم خواطرى حول هذه السورة الكريمة بالحديث عن قول الله سبحانه وتعالى :

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾

سورة الكهف

هذه الآية يجب أن نتوقف عندها وقفة . . لماذا ؟ . . لأنى أنا أقول أننى سأفعل كذا غدا . . وأنت تقول إنك ستفعل ذلك غدا . . والوحيد القادر على الفعل هو الله سبحانه وتعالى . . إن شاء فعل . . وإن شاء لا يفعل . . ونحن عاجزون تماما عن أن نفعل أو لا نفعل . . إلا بمشيئة الله . . ولنوضح ذلك قليلا .

الذى يريد أن يفعل شيئا . . يجب أن يملك أولا القدرة على الفعل . . ويجب

أن يملك ثانيا الوقت الذى سيتم فيه الفعل . . ويجب أن يملك ثالثا المكان الذى سيتم فيه الفعل . . بمعنى أننى إذا قلت سأذهب لمقابلة فلان غدا . . وهذا هو أبسط الأشياء فيما يقول الإنسان أنه سيفعله . . فإننى يجب أن أملك القدرة فى أن أكون موجودا غدا على قيد الحياة . . حتى تتم هذه المقابلة . . وأنا لا أملك هذه القدرة . . فالإنسان لا يملك القدرة على أن يهب نفسه الحياة لحظة واحدة . . وليس يوما كاملا . .

إذن قولى انى سأقابل فلانا خاطىء . . لأننى لا أعرف إذا كنت سأكون موجودا غدا على قيد الحياة أم لا . . الحياة رهن بمشيئة الله سبحانه وتعالى . . إن شاء أبقاها . . وإن شاء أخذها . . فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى عالم القدرة . . فأنا قد أكون موجودا غدا . . ولكنى لا أستطيع أن أذهب لمقابلة هذا الشخص . . قد أمرض فجأة . . أو قد يأتينى شىء مفاجىء عاجل . . أو قد يهبط على ضيف غير متوقع مثلا . . أو يحدث . . أى شىء آخر . . المهم أننى قد أكون على قيد الحياة . . ومع ذلك لا أستطيع أن أذهب لهذه المقابلة . . بسبب أشياء لا أملك القدرة على عدم حدوثها .

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى النقطة التالية . . وكنت أنا على قيد الحياة . . وبصحة جيدة وانتفت جميع الظروف التى تمنعنى من أن أتم هذه المقابلة . . فهناك الطرف الآخر . . وهو الشخص الذى سأقابله . . وقد أذهب فلا أجده فى مكتبه لأى سبب . . يتعطل فى الطريق . . يمرض . . يأتيه عمل مفاجىء . . يحدث له أى طارىء مفاجىء . . يمنعه من حضور المقابلة . . كأن تتعطل سيارته . . أو يصطدم بسيارة أخرى فيضطر للذهاب إلى الشرطة . . أو تحدث له أى مشكلة فى الطريق . . أو فى المنزل .

المهم فى هذا كله . . انى لا أملك عنصرا واحدا من عناصر القدرة على العمل لأقول انى سأفعل كذا . . ولكن من الذى يملك القدرة . . هو الله

سبحانه وتعالى .. فهو الذى يقول كن فيكون .. حى لا يموت .. باق لا يفنى .. لا يستطيع أحد أن يشغله عن شيء .. أو أن يمنع فعله أو قضاءه .. فإنه متى قضى شيئا فإنه يكون .. لماذا ؟. لأنه ليست هناك قوة تستطيع أن توقف أو تمنع .. أو تؤجل .. أو تؤخر .. أو تقدم ما يريده الله سبحانه وتعالى ..

ومن هنا فإن الفعال لما يريد هو الله سبحانه وحده .. أما نحن جميعا كلنا .. كل البشر فعالون لما يشاء الله .. فمادام العمل يدخل فى المشيئة فهو سيتم .. لأن الله وحده هو الفعال .

ومن هنا فإن قول الله سبحانه وتعالى :

« ولا تقولن لشيء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله » .

يريد أن يلفتنا إلى حقيقة كونية هامة .. لأن الذى يتم هو مشيئة الله وإرادته .. ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

« واذكر ربك إذا نسيت »

حتى تتذكر دائما أن الله هو الفعال .. والإنسان أصله من تراب .. ثم من نطفة .. وهو الخلق بعد آدم .. التراب أوالنطفة لا تستطيع أن تفعل شيئا من هذا التراب الذى ندوس عليه كل يوم هو نفس الجسد الذى نمشى فوقه .. ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى يريد أن يجعل الإنسان يفيق من الغرور ويذكره بخلقه .. وإذا كنت أنت من تراب وأنا من تراب .. فمن أين جاءتك القدرة الخارقة التى تجعلك تنسى الله وتعبد نفسك .

الله سبحانه وتعالى هو الذى وهبك هذه القدرة .. هو الذى خلق الكون لك .. وسخره من أجلك .. ولكن تعرف هذه الحقيقة يجب أن تعلم جيدا أن الله فعل هذا كله من حفنة من تراب .. فهؤلاء الذين تراهم أمامك، يعبدون أنفسهم هم حفنة من تراب مستها قدرة الله سبحانه وتعالى .. ولكى تسجد لهذه القدرة تأمل قليلا فيما استطاعت أن تفعله من حفنة من تراب .. وكيف حولتها إلى إنسان يسود الكون كله .

إن الله يريد أن يذكرنا بنعمه . . وأن تعلم أن الفضل منه . . وأن الذى أعطى يستطيع أن يأخذ . . وأن الذى منح يستطيع أن يمنع . . وهذه مسألة هامة جدا . . فى سلوكيات الحياة . . لماذا ؟ . . لأن الإنسان حينما يغتر بقدرته يبطش ويظلم . . ويفتك بالضعفاء . . ويطغى فى الأرض . . أما إذا تذكر أن هذا كله من قدرة الله . . وأن الله سبحانه وتعالى الذى منح يستطيع أن يأخذ . . والذى أعطى يستطيع أن يوقف هذا العطاء . . فإن خشية الله تدخل فى قلبه . . فتجعله يراجع نفسه . . فلا يبغى ولا يظلم . . ويخشى الله فى كل عمل يعمله . . وفى هذا صلاح الكون كله . . ولكن بعض الناس لا يزال يجادل . . وينسى الإنسان إنه غبى وساذج . . وهذا موضوع الفصل القادم .

حديث قدسى

قسمت الصلاة بينى وبين عبدى شطرين . . فنصفها لى . . ونصفها لعبدى . ولعبدى ما سأل . .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . . اقرأوا . . يقول العبد : « الحمد لله رب العالمين » . . فيقول الله عز وجل: حمدنى عبدى . . يقول العبد : « الرحمن الرحيم » . . يقول الله : أثنى على عبدى . . يقول العبد : « مالك يوم الدين » . . يقول الله عز وجل: مجدنى عبدى . . ويقول العبد: إياك نعبد وإياك نستعين ». ويقول الله: هذه بينى وبين عبدى . . ولعبدى ما سأل . . ويقول العبد: « إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » . . فهؤلاء لعبدى . . ولعبدى ما سأل .



الفصل الرابع

الله .. والزمن

أمور الغيب دائما . . هى الباب الذى يدخل منه كل ملحد إلى النفوس الضعيفة . . لماذا ؟ . . لأننا لا نرى الغيب . . ومادمنا لا نراه فهو كما قلت شىء إيمانى . . إما أن تؤمن به . . أو لا تؤمن . . والإيمان هو بالغيب . . لأنك إذا رأيت شيئا فلا تقول إنك تؤمن به . . لأنك تراه عين اليقين . . وبذلك فأنت لا تؤمن . . لأن الإيمان ليس مطلوبا فى الحسيات والمشاهدات . . ولكنه مطلوب فى الغيبيات . . فيما هو غيب عنا . . ولقد وضع الله سبحانه وتعالى الإيمان بالغيب أولى مراتب الإيمان . . فقال تعالى فى سورة البقرة . .

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ ﴾

سورة البقرة

وهكذا وضع الله سبحانه وتعالى . . أول شروط التقوى : الإيمان بالغيب . . باعتباره قضية هامة جدا . . تحكم السلوك الإنسانى . . فأنت مادمت تؤمن بالغيب . . وباليوم الآخر وبالحساب . . فإنك تخشى الله سبحانه وتعالى . . فى كل عمل تعمله . . فإذا مددت يدك لتسرق . . تتذكر أنك ملاقى الله . . وأنه سيحاسبك على ذلك . . فتتراجع عن هذه السرقة . . وإذا أردت أن ترتكب ما حرم الله . . وتذكرت الآخرة والحساب . . خشيت الله وتراجعت . .

إذن أساس السلوك البشرى فى الدنيا . . هو الإيمان بالغيب . . والإيمان بالغيب . . يدخل فيه أساسا الإيمان باليوم الآخر . . فإذا لم يكن إيمانك بكل هذا . . إيمان يقين . . بمعنى أن ذلك يحدث . . وكأنك تراه أمامك . . يقينا لا يدخل إليه الشك أبدا وإلا فى هذه الحالة تكون قد اهتززت ويستطيع من هنا الملحد . . أو غير المؤمن . . أن يدخل إليك ليضع الشك فى نفسك . . ويحاول أن يوهمك أن كل حديث عن الغيب . . هو غير صحيح . . أو غير واقع . . ومادام غير واقع . . فإن السلوك الإيمانى كله يتغير .

والإيمان بالغيب والآخرة .. هو أساس الإيمان كله .. فمادام ليس هناك حساب فممن نخشى ؟.. وممن نخاف ؟.. ولماذا ترتدع .. من الذى يرفع يدك عن ضعيف تغتصب حقه .. إلا إيمانك بالآخرة والحساب .. من الذى يوقفك عن أن تأكل أموال الناس بالباطل ؟.. أو أن تظلم وتبغى فى الأرض .. وتغرك قوتك .. فتفعل ما تشاء .. وتبغى على حقوق الناس كما تريد .. ان الوازع الذى يقول لك قف مكانك هو الإيمان بالآخرة .. لأنك فى هذه الحالة .. ستحس بأن كل عمل تعمله مكتوب عليك .. وإنك إذا كنت قويا جبارا فى الأرض .. أو فى هذه الحياة الدنيا .. فإنك ستلقى الله وإنك ضعيف ذليل فى الآخرة .. لا ناصر لك ولا معين .. وستقف أمامه خاشعا ليسألك عما فعلت .. يسألك عما جنته يداك .

إذن لولا الإيمان بالآخرة .. لتحولت الدنيا كلها إلى مجموعة من الوحوش .. يقتل القوى الضعيف .. ويعتدى القادر على غير القادر .. ويضيع الحق .. وتباح الحرمات .. ولكن أخشى ما يخشاه المؤمن هو حساب الله له فى الآخرة .. لماذا ؟.. لأنه يؤمن أنه ملاقى الله سبحانه وتعالى .. وأن حساب الآخرة سيكون بقدرات الله سبحانه وتعالى ..

قضية اليوم الآخر

بل أن أخشى ما يخشاه الكافر هو الحساب فى الآخرة .. قد يبدو هذا الكلام عجيبا .. كيف لإنسان لا يؤمن بالآخرة ومع ذلك يخشاه .. حقيقة الكافر لا يؤمن بالآخرة .. ولكن فى داخله شىء يؤرقه .. والموت الذى يراه كل يوم على حياة غيره .. يملأ حياته هو بالرعب .. والفزع .. وينغص عليه عيشه .. انه يعرف يقينا إنه سيخرج يوما ما من هذه الحياة .. فهو يرى ذلك كل يوم فى حياة ألوف غيره .. بل يراه فى حياة أقرب الناس إليه .. وهم أسرته وأقاربه .. ولذلك فهو لا يستطيع أن يزيح هذه الحقيقة من عقله .. ويلح عليه السؤال ..

إلى أين ؟ . . إلى أين ؟ . . فيحاول أن يأتى بالدليل تلو الدليل . . ولو زيفا . . ولو تضليلا . . ولو اضلالا . . محاولا أن يقنع نفسه أنه لا شيء بعد الموت . . وأنه لا آخرة ولا حساب . . عله يهون على هذه النفس . . التى ترى العذاب فى داخله . . يهون عليه ارتكاب المعاصى . . ولكنه ومهما فعل . . يظل فى قلق وخوف . . ويؤرقه الغد . . ويزعجه المستقبل . . ويحس أن حياته بكل ما فيها من مظاهر الدنيا هى لا شيء . . ومهما حاول أن يقنع نفسه . . فانه يعيش فى فراغ قاتل .

إن قضية اليوم الآخر . . أى يوم الدين . . هى قضية الإيمان . . الإيمان إنك ستلاقى الله سبحانه وتعالى . . وسيحاسبك . . فلتحاسب نفسك أولا . . والمؤمن إذا جاء أجله . . كانت نفسه مطمئنة . . لأنه كان على يقين أنه سيلاقى الله . . فراعى الله فيما يعمل . . أما غير المؤمن . . إذا سمع حديثا عن الموت . . انزعجت نفسه . . وملأ قلبه الخوف . . لماذا ؟ . . لأنه يعلم داخل نفسه أنه سيلاقى الله . . ولكنه يحاول بأدلة كاذبة . . أن يستر هذه الحقيقة . . التى سيكشفها الموت . . مصداقا لقوله تعالى :

« فبصرك اليوم حديد »

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (**الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا**) . . والحديث فى ظاهره لا ينطبق على المنطق الدنيوى . . فالمفروض أننى وأنا أعيش فى الدنيا متيقظ متنبه . . فإذا جاء الموت . . جاء كما يقولون النوم الأبدى . . ولكن الحقيقة غير ذلك . . فالناس فى هذه الدنيا نيام . . وماذا يحدث للنائم . . أنه لا يرى ما حوله . . ولا يتنبه لحقيقة ما يجرى . . وكذلك نحن فى الدنيا . . لا نرى ما حولنا . . لأن الروح موجودة داخل الجسد . . يحد من رؤيتها ذلك الطين الذى خلق منه الإنسان . . ولذلك فهى لا ترى الملائكة . . ولا ترى الجان . . ولا ترى كثيرا مما يحدث فى الدنيا . . مما لو رأته لأحست بأن حقائق الكون مستورة عنها . . ولعلمت يقينا بالغيب . . وما يحدثنا الله به عن أشياء

لا نسمعها ولا نراها . . مثل عالم الجن . . وعالم الملائكة . . ولكن عندما تخرج الروح من الجسد . . ترى الروح . . وهى لذلك ترى ما كان محجوبا عنها . . وتتنبه . . وتستيقظ . . وتفيق مما صور لها . . من أن الدنيا هى كل شىء . . وأن الحصول على كل شىء ولو بالباطل هو قانون الحياة . . عندما تخرج الروح من الجسد . . تعلم ما هى قوانين الحياة . . وما هى قوانين ما بعد الحياة . . وترى أشياء كثيرة لا تراها ولم تكن تصدقها فى الحياة الدنيا .

إذن فالناس وهم متيقظون منتبهون وهم فى الحياة الدنيا . . انما هم فى الحقيقة نيام . . مستورة عنهم غيبيات كثيرة . . تقال لهم ولكن لا يرونها . . فإذا ماتوا انتبهوا . . وعرفوا كل شىء . . مصداقا لقول الله :

« فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد »

ولولا أن الله سبحانه وتعالى هو مالك يوم الدين . . ما استطاع إنسان مستقيم أن يتحرك فى الحياة . . لماذا ؟ لأن حركتك فى الحياة إذا كنت مستقيما على المنهج سينتفع بها غيرك ممن لا يتبعون المنهج . . أنت لا تمد يدك إلى مال أحد . . ولكن هم سيمدون أيديهم إلى مالك . . أنت لا تؤذى أحدا . . ولكن هم سيؤذونك فى رزقك وأهلك كل ما يستطيعون به النيل منك . . أنت تعفو عن المسىء . . وهم سيستغلون هذا العفو معتبرين انه ضعف . . ومادمت رجلا طيبا فلا يخشى منك . . وهكذا يستهينون بك . . فإذا لم تعلم يقينا أن كل هذا له حساب . . انك ستجازى على اتباعك للمنهج . . وأن الله سبحانه وتعالى يدافع عن الذين آمنوا . . وانه سيمدك بنصره مادمت مؤمنا . . إذا لم يكن كل هذا صحيحا . . لكانت الدنيا للكافر وحده . . ولكنا قد تركناها لغير المؤمن . . يفعل ما يشاء ودون حساب . . ولكن الحساب من الله يأتى فى الدنيا والآخرة . . ولذلك فالله سبحانه وتعالى بالمرصاد لكل كافر . . يحبط أعماله فى الدنيا . . ويوفيه أجره فى الآخرة .

وهكذا يكون الإيمان بيوم الدين . . إيمانا بأن المؤمن لا يشقى . . لأن غيره

عصى الله . . وخالف الله . . إيمانا بأن المؤمن لا يذل . . لأنه يعفو ويصفح ولا يؤذى أحدا . . فيأتى الله سبحانه وتعالى ليقول له:اطمئن اطمئنانا كاملا . . واتبع أنت المنهج . . واتركهم يفعلون ما يريدون . . أو أدعهم بالحكمة والموعظة الحسنة . . وتأكد أن الله سبحانه وتعالى قادر عليهم . . وأن يد الله هى العليا . . والله لا يريد هؤلاء أن يأتوا إليه مكرهين . . وإلا لخلقهم هكذا . . أو لأنزل آية من السماء ظلت أعناقهم لها خاضعين . . انه سبحانه وتعالى لا يريدهم أن يأتوه قهرا . . أو قسرا . . أو تحت تهديد سيف . . أو خوفا من ضربهم بالسياط . . كل هذا لا يريده الله سبحانه وتعالى . . لماذا ؟ لأن قدرة الله فى اخضاعهم إيمانيا أقوى من قدراتنا نحن . . ولو أراد الله سبحانه وتعالى أن يجعلهم يأتون إليه وهم مكرهون لاستطاع . . ذلك على الله هين . . ولكن الله يريد من البشر . . أن يأتوا إليه طائعين مختارين . . أن يأتوا يقولون ياربى اعطنا القدرة على أن نطيع . . وأن نعصى . . وزين لنا الشيطان المعاصى . . وبهرتنا الدنيا ببريقها ومغرياتها . . ولكننا تركنا كل ذلك من أجلك . . وجئنا إليك ياربى طائعين مختارين . . لنعلن أننا نحبك . . وأن حبك فى قلوبنا . . ورضاك فى نفوسنا . . قد فاق كل شىء . . فلم يعد فى الدنيا ما يجذب قلوبنا إلا الحب لك . . ولم يعد فى الدنيا شىء يغرينا إلا رضاك . . ولذلك فكل عمل فيه حب لك نحن نحبه مهما طغى على نفوسنا . . وكل عمل فيه رضاك نحن نقدم عليه مهما كان من مشقة . . لأننا ياربى نعلم أن الخير هو ما اخترت . . ونعلم أننا سنلاقيك ونحسب حساب هذا اليوم .

هذا هو منهج الإنسان المؤمن . . ومنهج العبادة التى يريدها الله سبحانه وتعالى . . الله لا يريد منا أن نأتى إليه مكرهين . . ولكن يريد أن نأتى إليه باختيارنا . . ولهذا خلقنا مميزين بالعقل وحرية الاختيار . . ولو أن الله سبحانه وتعالى . . كان ير يد أن يقهرنا على عبادته . . لخلقنا لا اختيار لنا . . كالملائكة وباقى خلقه الذين هم ليسوا مختارين فيما يفعلون .

مالك يوم الدين

وإذا قرأت :

« مالك يوم الدين »

فى المصحف تجدها مكتوبة بقراءتين :

« مالك يوم الدين » . . « وملك يوم الدين »

فإذا قرأتها بأى القراءتين فهى صحيحة.فإذا قرأتها مالك . . فمالك الشيء هو المتصرف فيه وحده . . ليس هناك دخل لأى فرد آخر فيه . . أنا أملك عباءتى وأملك متاعى ، وأملك منزلى ، وأنا المتصرف فى هذا كله وحدى . . والملك الذى يحكم على الجميع . . كلمته هى العليا وليس فوقها كلمة . . يأمر فيطاع . . ويقول فينفذ قوله . . فإذا قلت :

« مالك »

فمعنى ذلك أن أحدا لا يتصرف فى ملكه غيره . . والله وحده هو المتصرف فى كل الأمور . . وفى يوم الدين . . هو الذى يملك التصرف بلا منازع . . ولا يستطيع أحد غيره أن يتدخل أو يكون له الأمر ولو ظاهرا . . ففى الدنيا يعطى الله الملك ظاهرا لبعض الناس . . ويولى بعض الناس ظاهرا أمر بعض . . ولكن فى الآخرة ليس هناك ظاهر . . فالأمر مباشر من الله سبحانه وتعالى . . فهو المالك وحده ظاهرا وباطنا . . ولذلك قال الله سبحانه وتعالى فى وصف يوم الدين :

« يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله »

وإذا قرأنا :

« ملك يوم الدين »

فمعناها المتصرف وحده فى أمور هذا اليوم مصداقا لقوله تعالى :

« لمن الملك اليوم لله الواحد القهار »

فكأن الله سبحانه وتعالى . . خلق الأسباب فى الدنيا لتمضى الحياة . . ولكنه فى الآخرة . . لا توجد أسباب . . وإنما قضاء الله سبحانه وتعالى مباشر . . والملك فى ظاهر الدنيا عند الناس ولكن الحقيقة أن الملك لله وحده.فإذا أراد الإنسان أن يتعامل فى تفسيره مع ظاهر الحياة . . قال ان ملك يوم الدين هى الأبلغ . . لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى جعل كلامنا يملك ظاهرا فى الحياة الدنيا . . فهذا يملك . . وهذا يملك . . وهذا يملك فى دنيا الأسباب . . ولكن فى الآخرة . . لا أحد يملك ظاهرا ولا باطنا . . لا مالك ولا ملك إلا لله سبحانه وتعالى .

ولكن بعض الناس قد يتساءل : هل الأمر فى الآخرة لله وحده سبحانه وتعالى . . أم الأمر فى كل وقت لله ؟ نقول أن الأمر فى كل وقت لله . . ولكن الله سبحانه وتعالى قد مكن بعض خلقه . . أو بعض الناس فى الأرض . . فجعل لهم ملكا ظاهريا . . أى ظاهرا للناس لا يخفى عليهم . . ولهذا حكمة هى حكمة الحياة نفسها . . والله سبحانه وتعالى لو لم يجعل الظاهر فى الأرض . . ولو لم يجعل الأسباب . . لما وجدت الآخرة ولانتفت الحكمة من خلق الدنيا . . لماذا ؟ لأن الدنيا هى دار اختبار الإيمان . . أى أن الله سبحانه وتعالى يمتحن فيها عباده . . وهو لا يمتحن هؤلاء لأنه لا يعلم المصلح منهم من المفسد . . ولكنه يمتحنهم ليكون كل منهم شهيدا على نفسه . . وحين يأتى يوم القيامة يجيء واحد من هؤلاء . . ويقول يارب لقد كنت سأتبع طريقك السوى ولكنك لم تمتحنى. ولكيلا يجادل إنسان . . ويكون كل شخص شهيدا على نفسه خلق الله الأسباب فى الدنيا . . وخلق هذا الملك الظاهرى .

وقبل أن نشرح ما معنى الملك ظاهرا للناس . . نود أن نبين الحكمة من اختبار النفس البشرية . . فبعض الناس يتساءل إذا كان الله سبحانه وتعالى يعلم كل شيء . . وليس لعلمه حدود ولا قيود . . فلماذا يمتحننا فى هذه الحياة الدنيا وهل هو محتاج إلى ذلك ؟. والجواب طبعا لا . . فالله سبحانه وتعالى كما

قلت .. علمه أزلى .. ويعرف كل نفس منذ خلقها .. ولكن الله سبحانه وتعالى يريد منا أن نكون شهداء على أنفسنا .

ولنضرب مثلا يقرب ذلك إلى الأذهان .. ولله المثل الأعلى .. تأتى الجامعات فى كل أنحاء الدنيا وتقيم امتحانات لطلابها .. هل الجامعة تجهل العلم .. فتريد أن يعلمها الطلاب ما لم تعلم .. طبعا هذا غير صحيح .. ولكنها تر يد أن يكون كل طالب شهيدا على نفسه .. فإذا قال أحدهم اننى أعرف كل ما تعلمته .. أو كل ما قررته على الجامعة .. فإنه فى هذه الحالة يرى اجاباته .. فإذا هو لا يعلم شيئا فيكون شهيدا على نفسه .. ولا يستطيع أن يجادل .. ولكن ماذا يحدث لو أننا ألغينا هذا الامتحان .. كل طالب سيدعى انه يستحق مرتبة الشرف .. حتى ذلك الذى لم يقرأ صفحة واحدة .. وتكون النتيجة اختفاء المقاييس .. والله سبحانه وتعالى أرسل منهجه للبشر .. وقال افعل .. ولا تفعل .. وحتى يكون كل إنسان شهيدا على نفسه .. كانت الحياة الدنيا .. وكانت حرية الاختيار لنصل بذلك إلى الحياة الآخرة .. دار الخلود .. حيث ينعم من أطاع الله .. ويحاسب من لم يطعه .

فلو ان الله سبحانه وتعالى .. لم يجعل الملك ظاهرا فى الأرض للبشر .. لما كانت هناك معصية .. لأنه مادام الأمر مباشرا من الله .. وبلا أسباب كما سيحدث فى الآخرة .. فما الذى يغرى الإنسان .. وفيم يكون له اختيار فى المعصية أو الطاعة ؟ وكل شيء مباشر من الله سبحانه وتعالى بلا أسباب .. اذن لابد من وجود الأسباب .. وأن يكون الملك ظاهرا بين يدى بعض الناس .. ويحدث اغراء للآخرين .. فى أن هناك من يضر وينفع من البشر أخذا بالظاهر .. ويأتى ذلك البشر الذى مكنه الله فى الأرض .. ويطلب من الناس أن يفسدوا فيها .. وأن يعصوا الله .. ويفسد هو فيتبعوه .. رغم أن الله سبحانه وتعالى .. قد بين لهم فى كتابه المنهج .. ولكنهم يتركون المنهج ويتجهون إلى الظاهر .. يزين لهم الشيطان ما يرتكبونه من معصية .. على أساس أن

ظاهر الحياة الدنيا هو الحقيقة . . وأن الخير فى الدنيا فى المال الحرام . . وأخذ حق الضعيف . . وأن تملك كل ما تستطيع . . وأن المال حلالا أو حراما . . هو الأمان . . ويبين الحقيقة التى يقدمها لنا الله سبحانه وتعالى فى منهجه . . والزيف الذى يحاول بعض الناس ايهامنا به . . عن طريق ظاهر الحياة الدنيا يكون الامتحان . . ليصبح كل إنسان شهيدا على نفسه يوم القيامة . . ويحضر مع كل نفس عملها .

ظاهـــر الأســـــباب

فكأن ظاهر الأسباب فى الدنيا . . هو من أساس حكمة الحياة . . أن يكون ظاهرا أمامك . . ان هذا يعطى . . وهذا يمنع . . وهذا يستطيع أن يعطيك المال والخير . . وهذا يستطيع أن يمنع عنك الرزق . . وأنت إما أن تندفع لإرضاء بشر على حساب الله سبحانه وتعالى . . فتكون بذلك قد عصيت . . وإما إن تلتزم بمنهج الله ولا تخشى أحدا . . مصداقا لقول لله سبحانه وتعالى . .

﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾

سورة آل عمران

إذا خشيت الشيطان وكل ما يخوفك به فى الدنيا من فقدان للمركز . . أو للجاه . . أو للمال . . أو لأى شيء آخر . . فأنت فى هذه الحالة تبتعد عن منهج الله . . وتعصيه لإرضاء بشر . . وفى هذه الحالة تكون شهيدا على نفسك . . وإذا التزمت بطاعة الله ولم تخش غيره تكون أيضا شهيدا على نفسك . . ثم لا يحدث غير ما أمر به الله .

إذن ظاهرية الملك لازمة فى الحياة الدنيا . . غير لازمة فى الآخرة . . ولذلك

فإن هذا الظاهر يختفى فى الآخرة . . وتختفى معه الأسباب . . ويكون كل شىء مباشرا من الله سبحانه وتعالى لعبيده . . لماذا ؟ لأن الآخرة هى دار خلود . . وليست مرحلة اختبار للحساب .

وهكذا نرى أن وجود ظاهر الملك فى الدنيا لأحد غير الله سبحانه وتعالى . . هو أمر تقتضيه طبيعة الحياة الدنيا . . من انها امتحان يمر به الإنسان . . ليوصله إلى الجنة . . أو إلى النار . . أما فى الآخرة . . فظاهر الملك يختفى . . كما تختفى الأسباب . . ولذلك فإن الأمر فى يد الله وحده . . فى الدنيا والآخرة . . ولكن الظاهر أن تبتلى فى الدنيا بملك ظالم . . أو بحاكم يأخذ ما أتاه الله من أسباب للظلم والطغيان . . فيأكل أموال الناس . . ويتخذ نفسه الها . . ذلك ظاهر الحياة الدنيا . . أما فى الآخرة . . فإنك تخرج تماما عن أى طغيان بشرى مما تواجهه . . وتخرج تماما عن حكم الذين لا يأتمرون بمنهج الله ولا يتبعون ما أنزله . . فيختفى الطغيان البشرى . . ويختفى الظلم البشرى . . فلا مالك . . ولا ملك . . بأى معنى إلا لله سبحانه وتعالى .

والله سبحانه وتعالى يستخدم كلمة يوم . . فى وصف يوم الدين . . كما يستخدمها سبحانه وتعالى فى آيات أخرى كقوله :

« وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » . . **« فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة »** . .

هنا يأتى بعض الناس ليجادل فى هذا ويقول:كيف يكون اليوم عند الله سبحانه وتعالى مرة بألف سنة . . ومرة بخمسين ألف سنة . . وأى مقياس هو لليوم عند الله . . ويزعم فى ذلك أن هناك تضاربا فى القرآن الكريم فهو يحسب اليوم مرة بألف سنة . . ومرة أخرى بخمسين ألف سنة .

ونحن نقول لهؤلاء . . إن الله سبحانه وتعالى عندما يستعمل كلمة يوم . . فإنه يخاطب البشر . . فالقرآن إنما نزل للناس . . ومادام قد نزل لهم . . فلابد

أن يخاطبهم بلغة يفهمونها . . وإلا استحال عليهم فهمه . . وبالتالى كانت الهداية إلى منهج الله مستحيلة . . نحن الذين نعرف اليوم . . فاليوم هو فترة من الزمن . . تبدأ من شروق الشمس إلى شروق الشمس . . أو من شروق الشمس إلى غروب الشمس . . فبعض الناس يطلق على النهار كلمة يوم . . والبعض الآخر يطلق على النهار والليل كلمة يوم . . وفى كلتا الحالتين هو وصف لفترة من الزمن . . تحدها علامة معينة . . مثل شروق الشمس . . أو شروق الشمس وغروبها . . فالقرآن يخاطبنا على قدر عقولنا .

ولكن هل معنى يوم الدين أنه يوم من شروق الشمس إلى شروق الشمس . . أو يوم فيه ليل ونهار . . أو يوم يحده زمن معين . . تتحكم فيه ظواهر خارجة عن الارادة كشروق الشمس . . وغروب الشمس . . ودوران الأرض حول نفسها .

إن الزمن لا يوجد إلا فى حياة البشر . . فكل حدث بالنسبة للبشر له زمن محدود . . أو ظرف زمان . . وله مكان محدود يقع فيه . . أو ظرف مكان . . وذلك حتى يستطيع العقل البشرى أن يستوعبه . . ولا يوجد فعل فى العرف البشرى يمكن ألا يقع فى زمن محدد . . أو مكان محدد . . ولا نستطيع نحن أن نستوعب مثل هذا الفعل إلا بالزمان والمكان . . فالعمر يحسب بالزمن . . والأحداث تؤرخ بأزمانها وأماكنها . . وكل إنسان منا له تاريخ ميلاد . . ومكان ميلاده . . وله تاريخ وفاته . . ومكان وفاته . . وبغير ذلك لا تفهم الأمور . . فنحن عاجزون عن فهم الأمور على اطلاقها . . بل لابد أن يحدها الزمان والمكان . . تلك قوانين الله فى الأرض .

ولكن الله سبحانه وتعالى . . لا يحده مكان ولا زمان . . إذن فكيف يستخدم الله سبحانه وتعالى كلمة يوم التى يحدها مكان وزمان . . وهو لا يحده مكان ولا زمان .

معنى الزمن

ولكننا إذا أردنا أن نفهم معنى الزمن فى حديث الله سبحانه وتعالى . . فإننا يجب أن نعلم أن الله سبحانه وتعالى . . هو الذى يخلق الزمان والمكان . . أى أنه مالك الاثنين معا . . والمخلوق لا يكون قيدا على ارادة الخالق . . أو يحدد هذه الارادة .

يوم الدين موجود فى علم الله سبحانه وتعالى . . بأحداثه كلها . . بجنته وناره . . وكل الخلق سيحاسبون فيه . . وعندما يريد الله سبحانه وتعالى لهذا اليوم أن يكون . . أو يخرج من علمه سبحانه وتعالى إلى علم غيره . . سواء من الملائكة . . أو البشر . . أو من غيرهما من خلق الله . . نقول أن الله سبحانه وتعالى حين يريد أن يخرج شيئا من علمه إلى علم غيره . . سواء من الملائكة أو البشر ، أو من غيرهما من خلق الله . . نقول:إن الله سبحانه وتعالى حين يريد أن يخرج شيئا من علمه إلى علم خلقه على إطلاقهم . . فإنه يقول كلمة : « كن » .

فيخرج الشيء من علم الله الأزلى إلى علم غير الله المحدود . . أى أن الله سبحانه وتعالى . . لا يحده يوم ولا زمان ولا مكان ، ولكنه جل جلاله إذا قال هذا يوم الدين . . كان ذلك هو يوم الدين . . فإذ أراده الله سبحانه وتعالى فى هذه اللحظة وقع فى هذه اللحظة . . وإذا أراده جل جلاله بعد ألف عام . . وقع بعد ألف عام . . وإذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يظهره بعد مليون سنة . . حدث بعد مليون سنة . . فما يريده الله سبحانه ليوم الدين هو موجود فى علمه . . بكل مواصفاته من وزمان ومكان . . وحشر . . وطريقة بعث . . وطريقة حساب . . وجنة . . ونار . . كل هذا موجود فى علم الله . . والله سبحانه وتعالى يملك أن يكون يوم الدين هو هذه اللحظة أو هو بعد ألف سنة . . أو بعد ملايين السنين .

والإنسان لا يملك الزمن . . ولكن الزمن هو الذى يملكه . . فأنت لا تستطيع أن تأتى بالماضى . . لتغير شيئا قد حدث فيه . . فما حدث قد انتهى وخرج عن قدرتك تماما . . ولذلك إذا كنت قد ارتكبت جريمة قتل مثلا . . فأنت لا تستطيع أن تعيد الزمن إلى الوراء . . حتى تعود الحياة إلى الشخص الذى قتلته . . وإذا أذيت إنسانا مثلا فأنت لا تستطيع أن تعيد الزمن . . حتى تزيل الضرر الذى أصابه فيما آذيته به . . وكما أنك لا تملك القدرة على الماضى . . فإنك لا تملك القدرة على المستقبل . . فأنت لا تستطيع أن تعرف ما هو قادم من شر حتى تتقيه . . ولا من خير حتى تستزيد منه . . ولكنك تملك فقط اللحظة التى تعيش فيها . . فاللحظة التى سبقت هى ماض لا يملكه إلا الله . . واللحظة القادمة هى مستقبل لا يملكه إلا الله . . وأنت لا تستطيع أن تتحكم فى الزمن فتوقفه . . فلا تستطيع مثلا أن توقف دوران الأرض . . حتى لا يكون ليل ولا نهار . . ولا تستطيع أن تتحكم فى الزمن لتبقى طفلا لا ينمو . . أو شابا لا يصيبه الهرم . . أو إنسانا يتخطاه الموت . . كل هذا خارج عن إرادتك البشرية تماما . . وسواء أردت أو لم ترد . . فالزمن يمضى . . وأنت تأتى إلى الدنيا فترة محدودة وترحل . . وما تفعله لا تستطيع أن تعيد الزمن لتصحيحه .

ولذلك إذا قلنا يوما بمنطق البشر . . فهذا قانون دنيوى . . لا تسيطر عليه أنت . . حقبة من الزمن تمر . . سواء أردت أو لم ترد . . بأحداثها التى لا تستطيع أن تتنبأ بما هو قادم منها . . ولا أن توقف أو تعيد ما تم منها . . هذا هو المنطق البشرى . . ولكن الله سبحانه وتعالى بقدراته هو يملك كل شىء . . فيوم الدين موجود عنده فى علمه . . وهو يستطيع أن يظهره لنا فى الوقت الذى يريده . . فأنت إذا قست كلمة يوم الدين بمقاييس البشر . . فأنت مخطىء . . لأن الفاعل هو الله سبحانه وتعالى .

وإذا قال بعض العلماء . . إن مالك يوم الدين معناها مالك أمور هذا اليوم . . نقول لهم : متى كان الله سبحانه وتعالى غير مالك لكل أمر . . لقد

كان دائما هو المالك . . ولكنه استخلفنا فى مال أو حكم أو سلطان . . بأذنه . . وبأمره . . متى شاء . . وكيف شاء . . دون تقيد بأى أمر من الأمور . . ولذلك عندما يحث الله سبحانه وتعالى على الانفاق لإعانة الفقير والمسكين . . لا يقول: انفقوا مما لديكم . . أو مما كسبتموه . . وإنما يقول سبحانه وتعالى :

« وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » .

أى أن الله سبحانه وتعالى هو الذى أعطانا هذه الخلافة . . وفوض الأمر إلينا فيما أعطى من مال . . أو جاه . . أو سلطان . . ليرى ماذا نفعل . . وهل ننفق فيما أمرنا الله . . أم ننفق فى الافساد فى الأرض . . ونكون بذلك شهداء على أنفسنا يوم القيامة .

والله سبحانه وتعالى من قدرته . . انه يستطيع أن ينزع ما أعطاه للبشر فى أى وقت يشاء . . وهذه من طلاقة القدرة . . فالإنسان إذا أعطى الإنسان مالا مثلا . . فإنه قد لا يستطيع أن يسترده منه . . وإذا أولاه ولاية مثلا ـ قد لا يستطيع أن ينزعه منها . . ذلك أن الوالى يمكن أن يجرد جيشه أو يسلحه . . ويعلن استقلاله عمن ولاه الحكم . . وكذلك فى كثير من أمور الدنيا . . فإذا أطعمت إنسان طعاما مثلا فإنك لا تستطيع أن تسترده . . ولكن الله سبحانه وتعالى . . يستطيع أن يأخذ من كل إنسان أيا من نعمه التى استخلفه فيها . . ويستطيع كذلك فى لا زمن تقريبا .

فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أعطى إنسانا الصحة . . فهو قادر على أن يزيلها عنه فى لحظات . . وإذا كان الله قد أعطى إنسانا مالا . . فهو قادر على أن يذهبه عنه . وإذا أعطاه حكما . . أو عزة . . أو جاها فهو يستطيع أن يسلبه اياها تماما . . ذلك هو الله . . وتلك قدراته . . ولذلك لا يجب ألا نتعجب من إنسان ضاع ملكه فى أيام . . أو فقد ماله فى ساعات . . أو ابتلى بمرض بين يوم وليلة لا يستطيع أن يجد له شفاء .

تلك هى من قدرات الله سبحانه وتعالى .. ولذلك حين نقول : « مالك يوم الدين » .

فإن الله سبحانه وتعالى .. يملك الأمر فى الدنيا والآخرة .. الأمر بيده دائما .. وهو الذى يضع ويحدد .. وفى الآخرة تزول كل الأسباب .. ويزول معها كل قانون دنيوى .. وتصبح القدرة والقوة لله سبحانه وتعالى مباشرة بلا أسباب .. بما أنه مالك الأمر كله بلا أسباب .. فهو سبحانه وتعالى يحدد وبلا أسباب .. شكل هذا اليوم وكل مواصفاته .. فلا نستطيع نحن أن نقول أن هذا اليوم سيكون ٢٤ ساعة .. أو سيخضع لأى مقياس من مقاييس البشر .

بعض العلماء يقول .. ان الناس قبل اليوم الآخر .. ستشملهم غيبوبة الموت .. وأن الآخرة ستكون استيقاظا لهم .. لأنهم فى الآخرة سيتعرضون لأهوال .. ويرون أشياء .. ومن هنا ستكون الآخرة نهارا .. لأن الرؤية وقتها أو محلها النهار .. ونحن نقول لهم أن هذا فيه تجاوز .. لماذا ؟ .. لأنهم كما يخطىء الكثيرون منا .. يأتون بمقاييس الدنيا .. ويطبقونها على يوم ليس من أيام الدنيا .. والله سبحانه وتعالى أعطانا علامات الآخرة . ومن هذه العلامات كما قدمنا فى سورة التكوير .. وشرحنا باستفاضة اختلاف المألوف .. أى أن كل شىء فى هذه الدنيا .. قد ألفته النفس كالليل .. والنهار .. والبحار .. والجبال .. والنجوم .. والشمس .. والقمر .. كل ما ألفناه فى هذه الدنيا ينتهى .. مصداقا لقوله سبحانه وتعالى :

﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ ﴾

سورة التكوير

ولهذا فإن كل المقاييس الدنيوية ستزول . . ولا يصح لنا أن نستخدم مقياسا دنيويا من المألوف . . فى وصف يوم الدين . .

كأن نقول ان كلمة يوم . . معناه أنه سيكون نهارا . . إلى آخر ما يقال . . لأن الله سبحانه وتعالى أخبرنا . . أنه فى هذا اليوم . . سيزول كل شىء ألفه الإنسان . . فلا يأتى أى منا ليقول : إن هذا اليوم ٢٤ ساعة . . أو أنه نهار . . إلى آخر هذا . . لابد كل شىء يتم بمقاييس الله سبحانه وتعالى . . يضعها هو ونحن لا ندرى عنها شيئا . . إلا عندما يريد الله سبحانه وتعالى أن يظهرها لنا . .

وهكذا نرى أن الزمن عند الله مختلف . . لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى يخلق الزمن ويحدده . . ولذلك فعندما يتساءل بعض الناس . . عن معنى الآية الكريمة :

« كل يوم هو فى شأن » .

وهل اليوم هنا يحسب بالساعات . . أى كل ٢٤ ساعة . . أو اليوم معناه النهار . . فنحن نقول أن الله سبحانه وتعالى شأنه لا ينتهى أبدا . . فإذا كان معنى اليوم . . هو النهار والليل . . فالله سبحانه وتعالى . . شأنه ليلا ونهارا.وإذا كان معنى اليوم هو النهار فقط . . والأرض كرة نصفها ليل ونصفها نهار . . ولذلك فإن النهار موجود دائما على الأرض . . وهذا معناه أن شأنه لا ينتهى أبدا . . وإذا أردنا الدقة . . وتتبعنا دوران الأرض حول نفسها . . وحول الأرض . . وخطوط الطول التى رسمها الإنسان على سطح الأرض . . لوجدنا أنه فى كل جزء من الثانية . . يبدأ فيه نهار فى مكان . . وينتهى ليل فى مكان . . والله سبحانه وتعالى حين يقول :

« كل يوم هو فى شأن » . .

فهو فى شأن لا ينتهى أبدا . . لأن حركة الليل والنهار . . مستمرة على الأرض . . لا تنتهى أبدا . . ولذلك فالله سبحانه وتعالى فى شأن دائما . .

على أن القوة البشرية .. تتوه فى قدرة الله سبحانه وتعالى .. فهى فى قضايا الغيب قاصرة .. لا تستطيع أن تفهم .. والله سبحانه وتعالى .. يعلم أن علم البشر محدود .. وهو الذى أعطى هذا العلم للبشر .. لذلك يأتى الله سبحانه وتعالى فى قضية الزمن .. ورحمة بعقول البشر .. ليعطى مثلا يقرب المعنى إلى الأذهان .. فيقول جل جلاله :

﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾

سورة الحج

ويقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ ﴾

سورة المعارج

.. والله هو الذى ييسر لنا الأمور .. يخاطبنا على قدر عقولنا .. وعندما يقول الله :

«يوم » ..

فمعنى ذلك أنه يوم بمقدار حسابنا البشرى .. كما سبق أن قدمنا .. والاختلاف هنا الذى وضعه الله سبحانه وتعالى فى حقبة الزمن .. بين شروق شمس وغروب شمس .. أو شروق شمس وغروب شمس هو اختلاف مقصود .. ليبين لنا أنه لا زمن .

اختلاف المقياس

كيف يمكن أن يحدث ذلك .. باختلاف المقياس .. الله سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا ويقول لنا : أنا الذى خلقت اليوم الذى تعيشونه .. وهو ٢٤ ساعة .. والمخلوق ليس قيدا على قدرة الخالق .. ولذلك .. فإذا أردت أن أخلق

يوما .. يفصل بين شروق شمس وغروبها ألف سنة .. لاستطعت .. وإذا أردت أن أخلق يوما يفرق بين شروق شمس وغروبها .. مليون سنة لاستطعت .. ذلك هو الله الخالق .. فالزمن هنا يخضع لادارة الله سبحانه وتعالى فى قوله :

« كن » ..

إذن فمقاييس الزمن لا تحكم الله سبحانه وتعالى .. لماذا ؟.. لأن الله هو الذى يخلق الزمن ويحدده .. وهو قادر على أن يخلق يوما مقداره ساعة .. ويوما مقداره مائة ألف سنة .. ويوما يستمر بلا نهاية .. فلا مقاييس للزمن هنا .. لأن الله يخلق ويختار .. فلا يأتى أحد ما يعتر على ذلك ، لأن الله سبحانه وتعالى قال :

« مالك يوم الدين » ..

أن يحاول أو يأخذ من كلمة يوم .. قيدا على قدرة الله .. فيقول أنه ليل أو نهار .. أو أن مقداره ٢٤ ساعة .. أو سنة .. أو عشر سنوات .. ولكن كلمة يوم هنا .. مختلفة عن مقاييس الدنيا .. لأن الله سبحانه وتعالى .. قال لنا وأخبرنا أن الآخرة خروج عن كل مألوف فى الدنيا .. وقال لنا وأخبرنا .. ان كلمة يوم التى استخدمها سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم .. ليست مقصورة على المعنى البشرى .. الذى نفهمه .. بل قد يكون يوم ٢٤ ساعة .. ويوم ألف سنة .. ويوم خمسين ألف سنة .. ولذلك ترك لنا نسبية الزمن مفتوحة .. ليقرب من أذهاننا .. أن الآخرة .. أو يوم الدين .. لها مقاييس أخرى .. ولنعرف ونحس أن كلمة يوم بالنسبة للآخرة .. تختلف مقاييسها .. عن كلمة يوم بالنسبة للدنيا .

وهكذا نرى عظمة القرآن الكريم .. فى أنه يأتى بما يحسبه بعض الناس تناقضا ظاهريا .. ثم يعطينا هذا التناقض .. فيهلل أولئك الذين أصابت قلوبهم الغفلة .. فيبدأون الحديث عن القرآن الكريم .. والتناقض فيه .. إلى آخر ما قيل .. وما يقال .. فتنشط العقول المؤمنة ويفتح الله عليها لتبين للناس

الاعجاز الموجود الذى لولا غير المؤمنين لما تنبه إليه أحد . . وهكذا يسخر الله ويبين معجزاته .

وفى بعض الأحيان . . يأتى بعض الناس . . ليسألوك عن تناقضات ظاهرية فى كتاب الله . . فيقولون أن الله سبحانه وتعالى يقول :

« إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم » .

ويقول :

« ألا بذكر الله تطمئن القلوب » .

ويتساءلون كيف يمكن أن تخاف القلوب وتطمئن إلى شىء واحد وهو ذكر الله . . مع أن الخوف عكس الطمأنينة . . فالخوف فزع وشعور بالخطر . . والطمأنينة راحة . . واحساس بالأمان . . فكيف يمكن أن يجتمعا فى وصف شىء واحد . . وهو ذكر الله . . مع أن الذى يخيف . . عكس الذى يطمئن .

ونحن نقول لهؤلاء . . كما قلنا من قبل . . فيما يتعلق بالزمن . . وكونه اليوم ألف سنة . . أو خمسين ألف سنة . . نقول لهم . . إن الله سبحانه وتعالى حين يقول . . فلا شىء فى القرآن الكريم اسمه الصدفة . . ولا شىء اسمه تجاوز المعنى . . بل ان المعنى فى القرآن مطابق ومساو للفظ تماما . . فحين يقول الله سبحانه وتعالى :

« إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم » . .

فهو يصف ذلك الإنسان المؤمن . . أو النفس المؤمنة . . يصفها وصفا دقيقا . . هذه النفس . . قد نسيت الله لحظة . . أغراها أى شىء فى الدنيا . . مال . . أو جاه زائف . . المهم . . إن هذه النفس جرتها الدنيا لحظة أو لحظات . . فنسيت الله . . ثم تذكرت .

ومعنى التذكر . . إنها أفاقت مرة أخرى . . فعرفت أنها ستلاقى الله سبحانه وتعالى . . وأن هذا اللقاء يقين . . حينئذ يدخل الوجل . . وهو الخوف الشديد إلى هذه النفس . . تحس بهول ما صنعت حين نسيت الله لحظة . . لماذا ؟ . .

لأنها تعرف الله . . تعرف قدراته . . وتعرف ما ستلاقيه فى اليوم الآخر . . إذا نسيته . . فى هذه اللحظة . . تستحضر العقاب يقينا . . وقدرة الله يقينا . . فيصيبها الهول والفزع . . لماذا ؟ . . لأنها تعلم أن الجزاء يأتى بقدرات الله . . وهذا يجعل أقوى القلوب المؤمنة . . ترتعد من الوجل والخوف . .

هذه هى النفس المؤمنة . . أما النفس غير المؤمنة . . فهى تلهو وتلعب . . وإذا ذكر الله . . لا يدخل الوجل . . ولا الخوف إلى النفس . . لماذا ؟ لأن استحضار العذاب أو لقاء الله . . غير موجود بل أن بعض هؤلاء الناس. يتهمون الإنسان المؤمن بأنه إنسان أبله . . رجل لا يتمتع بالذكاء . . وكيف يتمتع بالذكاء . . وهو يشقى ويتعب للحصول على مال ورزق . . ثم بعد ذلك يعطيه لغيره من الفقراء والمحتاجين مجانا . . وكيف يكون ذكيا . . وهو يستطيع أن يضع الجنيه فوق الجنيه . . والرزق فوق الرزق . . ويشترى عمارة . . أو سيارة فاخرة . . أو يذهب فيقضى وقتا ممتعا فى أوربا وأمريكا . . ومع ذلك فإنه يفضل أن يعطى هذا الرزق لانسان بائس . . أو فقير . . أومحتاج . . دون أن يتمتع به هو .

الناس تتمتع بما حباها الله من مال تشترى به فاخر الثياب . . وفاخر الأثاث . . وفاخر السيارات . . وتتمتع بالدنيا ، ومن أعز على الإنسان من نفسه يمتعها ؟. وهذا المؤمن يتعب فى المال ويشقى . . ثم يوزعه على الناس . . والمتع فى الدنيا حوله . . ولكنه يغض البصر عنها . . ويحرم نفسه . . ويبتعد عن الحرام . . إنه إنسان حرم نفسه من ماله . . ومن زينة الدنيا .

ولكن الحقيقة . . أن الإنسان المؤمن . . هو أذكى الناس جميعا . . لأن المال الذى اكتسبه غيره . . أنفقه وأفناه فى متاع محدود . . وعلى قدر ما تعطى الدنيا . . ولكن هذا المؤمن أخذ ماله . . واختار ثلاثة أشياء هامة . . أولا أن هذاالمال يبقى ولا يفنى . . فماله إذا أنفقه فى الدنيا يفنى . . وماله عند الله

يبقى .. وهو يريد أن يجعل هذا المال .. باقيا أبدا إلى يوم القيامة .. ولذلك فقد دفع بماله إلى الفقراء والمساكين .. لا ليفنيه .. ولكن ليبقيه .. فأيهما أذكى ؟ ذلك الذى يفنى ماله فى لحظات .. أم ذلك الذى يجعله خالدا .. هذه واحدة .. أما الثانية .. فقد كان هذا المال .. سيتمتع به حسب قدرات البشر .. فالذى سيأخذ هذا المال .. وفى أى فن يعمل .. سيمتع صاحب المال على حسب قدراته .

فإذا اختار صاحب المال سيارة فاخرة مثلا .. من أفخر سيارات الدنيا .. فيستمتع بقدرات البشر الذين صنعوا هذه السيارة .. بما استطاعوا أن يوفروا فيها من وسائل الراحة والرفاهية .. وإذا اختار مثلا أن يأتيه طعامه من أفخر مطاعم العالم .. فهو سيتمتع بطعام طيب .. حسب قدرات ذلك الطاهى الذى أعد الطعام .. فإذا اختار أفخر ثياب الدنيا .. فهو سيتمتع بقدرات الدنيا حسب قدرات صانع هذا الثياب .. ولكنه اذا اختار الله سبحانه وتعالى .. فإنه قد اختار أن يتمتع بقدرات الله .. التى ليس لها حدود ولا قيود .

فمن الذى يمتاز بالذكاء فى هذه الحالة .. ذلك الذى اختار المتعة بقدرات البشر .. أم الذى اختار المتعة بقدرات الله سبحانه وتعالى .. أيهما أكثر ذكاء وفطنة .

نأتى بعد ذلك إلى النقطة الثالثة .. إن المال فى الدنيا قد يضر وينفع .. أى أنه ليس نافعا لصاحبه على اطلاقه .. فإذا استخدمت المال مثلا .. فى الافراط فى فاخر الطعام .. أصابت جسمك الأمراض والعلل .. التى قد تمنعك من تناول لقمة واحدة .. فإذا أردت أن تسرف فى الشراب مثلا .. أو فى الملذات الحسية .. ينهدم جسدك .. وتضيع قوتك .. وتضعف صحتك .. وتصبح عليلا .. وهكذا أصابك المال بالضرر وليس بالمنفعة ..

وقد تنفق هذا المال على إنسان فيطمع فيك .. وتحسن إليه فيرى الخير عندك

فيقرر أن يقتلك ليحصل على مالك كله . . وفى هذا يكون المال ضررا لك وليس نفعا . . وقد يجلب عليك المال العداوات . . والعقد . . والكراهية . . من غيرك من البشر .

وهكذا نرى أن المال فى الدنيا . . قد يضر وينفع . . أى أنه ليس كله نفعا . . أى فيه ضرر ونفع . . ولكنه عند الله سبحانه وتعالى . . نفع بلا ضرر . . وتمتع حسب قدرات الله سبحانه وتعالى . . دون أن يصيبك منه إلا الخير . . والخير العميم . . فمن هو الذكى . . . ذلك الذى ينفق ماله فيما يمكن أن يعود عليه بالضرر . . أم ذلك الذى ينفق ماله فيما يعود عليه بالنفع الخالص .

وهكذا نرى ان المؤمن ليس إنسانا غبيا . . كما يدعى بعض الناس . . بل انه أذكى كثيرا . . من هؤلاء الذين يتظاهرون بالفطنة . . وحسن معالجة الأمور . . ويختارون ما قد يضرهم ولا ينفعهم . . بينما المؤمن ينفق ماله . . فيما ينفعه ولا يضره .

يقيـــن الإيمـــان

ولذلك . . فإن الإنسان المؤمن . . يتصرف فى حياته كلها من منطلق واقع يقينية الإيمان . . وهو يعلم يقينا أنه سيلاقى الله سبحانه وتعالى . . وهو يعلم يقينا انه سيحاسب . . وهو يعلم يقينا أن هناك الآخرة . . وهو يعلم أن الله يجزى الحسنة بعشر أمثالها . . ويضاعف لمن يشاء . . وهو فى عمله هذا مستبشر بالله وبالآخرة . . وكأنه يراها . . ويعيشها . . ويحسها . . فإذا نسى لحظة . . أو سها فترة . . ثم تذكر . . أو ذكره إنسان بالله . . ظهرت أمامه الصورة التى يعرفها عن الآخرة . . فارتعد الجسد خوفا من الله . . ووجل القلب رعبا من الجزاء .

هذا هو معنى الآية الأولى ، فأتى بعد ذلك إلى الآية الثانية التى يقول فيها الله سبحانه وتعالى :

« ألا بذكر الله تطمئن القلوب »

هذا ذكر .. وهذا ذكر .. نعم .. والخطاب فى الآيتين للإنسان المؤمن .. الذى وجل قلبه مؤمن .. والذى اطمأن قلبه مؤمن أيضا .. فقط هنا مجال التذكير مختلف .. فالأول ذكر الله وهو يرتكب معصية .. أو يهم بارتكاب معصية .. والثانى .. ذكر الله وهو يواجه ابتلاء .. وهو يواجه أزمة .. وهو يواجه ضيقا .. والإنسان المؤمن يصادف فى حياته أشياء كثيرة وأزمات .. بل فى بعض الأحيان .. يبتلى من الله سبحانه وتعالى .. امتحانا للإيمان .

وكقاعدة عامة نستطيع أن نطبقها .. فالإنسان غير المؤمن .. فزع فى حياته .. قلق فى كل شىء .. من الغد .. من المستقبل .. من المال .. من الصحة .. من زوال النعمة .. من بطش ظالم أو جبار .. من رزق الغد .. من كل شىء حوله .. فإذا صادفته أزمة .. انقلب هذا الفزع إلى رعب .. يؤدى فى كثير من الأحيان إلى الجنون .. أو الانتحار .. أو ارتكاب جريمة .. أما الإنسان المؤمن .. فإذا صادفته أية أزمة فى الدنيا .. فإن قلبه مطمئن إلى أن الله لن ينساه .

إذا لم يكن لديه طعام الغد .. فرزق الغد سيأتى .. وإذا حدثت له أزمة فالله مفرج الكروب والأزمات .. وإذا اعتدى عليه جبار .. فقلبه مطمئن إلى قضاء الله .. فإذا أصابته شدة ذكر الله فاطمأن قلبه .. وإذا زالت عنه نعمة .. تذكر أن الله سبحانه وتعالى .. يعطى من يشاء .. وأنه سيعوضه عما فقد .. فاطمأن قلبه .. فهو كلما ذكر الله سبحانه وتعالى .. علم أن الله معه بقدراته .. ومادام الله معه .. فمنذا الذى سيغلبه .. ومنذا الذى سيصيبه بالسوء .. ومم يخاف ؟ فأين هو التناقض بين قوله تعالى :

« إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم »

وقوله سبحانه :
« ألا بذكر الله تطمئن القلوب »
فذكر الله يعنى انك تذكر الله وأنت غافل . . والآية الثانية تعنى انك تواجه أمرا من أمور الدنيا قد يفزعك . . وفى كلتا الآيتين . . أنت تفزع إلى الله . . الأولى بقلب وجل خائف منه . . نادما على ما فعلت . . طالبا التوبة . . والثانية بقلب مطمئن إلى قضائه . . محتميا بالله . . مؤمنا بأنه لن يتخلى عنك . . وأنه مادام الله سبحانه وتعالى لا يتخلى عنك . . فلن تستطيع أى قوة فى الدنيا أن تصل إليك .

تلك هى معجزات الإيمان . . الخوف من الله سبحانه وتعالى . . إذا نسيناه . . والرجاء فى الله سبحانه وتعالى . . كلما ضعفت قدراتنا عما واجهناه . . أو نواجهه فى هذه الحياة .

نعود بعد ذلك إلى قول الله سبحانه وتعالى :
« مالك يوم الدين »
كل ما نسبه الله سبحانه وتعالى . . نفسه فالشبه له . ما هو معنى ذلك ؟ معناه أن الله عندما يقول « مالك يوم الدين » فيوم الدين منسوب إلى الله سبحانه وتعالى أى أن كل ما سيحدث فيه . . وكل ما سيتم . . يقع تحت :
« سبحان الله » . . « وليس كمثله شيء ».

لأننا فى هذه الحالة ننسب الفعل إلى الفاعل . . وهذه قاعدة عامة . . فأنا إذا قلت مثلا كلمة (فرح) على إطلاقها . . فإنها تفتقر إلى التحديد . . لكننى إذا نسبتها إلى فاعلها . . فقد يقترب من ذهنك المعنى . . فإذا قلت مثلا . . فرح . . البواب . . كان لها معنى حسب قدرات البواب . . فإذا قلت فرح ابنة

المحافظ . . تغير المعنى تغيرا كاملا . . رغم أن الفعل واحد . . ولكن الفاعل مختلف . . فإذا قلنا فرح ابنة الملك . . تغير الفعل مرة أخرى . . ليشمل الفخامة والقدرة وأشياء كثيرة . . لا يشملها فرح ابنة البواب مثلا . . فأنت حينما تقارن فرح ابنة البواب . . وفرح ابنة الملك . . وما بينهما من فارق هائل . . فإنك فى الحالة الأولى تنسب الفعل إلى الله سبحانه وتعالى . . ففى هذه الحالة . . يتناسب الفعل مع قدرات الفاعل . . الذى ليس كمثله شيء . . والذى تفوق قدراته قدرات البشر جميعا . . بملايين المرات . . لذلك لا تحاول أن تضع عقلك قيدا على فعل الله سبحانه وتعالى . . وأن تصوره بقدراتك أنت . . بل اثبته . . أو انسبه لقدرات الله سبحانه وتعالى . . فيخرج عن نطاق العقل . . ماذا قال الله سبحانه وتعالى :

« مالك يوم الدين » .

فإن كل شيء يحدث فيه بقدرة الله مباشرة . . دون أى واسطة أو أسباب . . فانسب الفعل للفاعل . . الذى لا يحده قيد ولا زمن . . هكذا يأتى كل شيء فى يوم الدين . . مقدار ذلك اليوم مثلا . . الله يعلمه ونحن لا نعلمه . . لأن يوم الدين بكل ما فيه فى علم الله سبحانه وتعالى . . أن يبقى يوم الدين ألف سنة . . أو مائة ألف سنة . . أو مليون سنة . . مما نعد نحن . . أمر ممكن لأن الله سبحانه وتعالى خالق هذا اليوم . . يستطيع أن يبقيه ما يشاء إلى ما شاء . . ما سيحدث من أهوال فى هذا اليوم . . وماذا سترى الناس . . وماذا ستسمع . . وماذا ستشاهد . . كل هذا مما لم نألفه . . ولم نعرفه فى حياتنا هذه سيحدث . . رؤيتنا للملائكة . . رؤيتنا للنار والجنة . . كل ذلك يخرج من نطاق قدراتنا . . إلى نطاق قدرة الله . . فهو الذى سيخرج لنا هذا كله . . وسيريه لنا . . ولذلك لا تقل كيف . . لأن الله سبحانه وتعالى يملك القدرة . . وليس كمثله شيء . .

على أن الله سبحانه وتعالى . . تحدث فى القرآن الكريم عن مفهوم الزمن . .

فقال سبحانه وتعالى :
« **أتى أمر الله فلا تستعجلوه** »

والذى يلفت النظر هنا . . هو أن الله سبحانه وتعالى يقول « **أتى** » . . ويقول « **فلا تستعجلوه** » . . اتى فعل ماضى . . أى أنه حدث فى الماضى . . شىء ثم وقــع . . فكيف يقـول الله سبحـــانـه وتعـــالى « **اتى** » . . ويقـول « **فلا تستعجلوه** » . . مع ان الاستعجال يقال لشىء مستقبلى . . أى شىء لم يحدث بعد .

هذا هو معنى الزمن عند الله سبحانه وتعالى . . فأتى أمر الله أى اتى وأصبح حقيقة واقعة . . وكل أحداث الأرض منذ بدء الخليقة حتى نهايتها موجودة عند الله سبحانه وتعالى . . وهو الذى يقول لها: « **كن** » . . فتخرج من علمه وبقدرته . . إذن أتى معناه انه تم فى علم الله . . تماما كما قلنا . . إن يوم القيامة أو يوم الدين . . بكل ما سيحدث فيه . . أو ما سيجرى وما سيتم موجود فى علم الله سبحانه وتعالى . . فإذا شاء الله له أن يخلق . . قال:« **كن** » . . فظهر إلى علمنا . . وعرفناه . . وإن لم يشأ أبقاه غيبا عنا . . فلا ندرى به شيئا . . ولا نعلم له وجودا .

ولذلك عندما يخاطبنا الله سبحانه وتعالى عن شىء فإنه عنده اتى وانتهى . . ولكنه يقول لنا :« **فلا تستعجلوه** » . . أى لا تستعجلوا بروزه إلى علمكم المحدود . . ودائما الإنسان عجول . . يريد أن يصل إلى كل شىء بسرعة . . حتى لو كان فى هذا الشىء ضرره . . فالله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا . . إن ما هو ماض عندى . . أعرفه وقررته وخلقته . . ربما سيظهر لكم عندما أشاء . . ولذلك لا تستعجلوه فربما كونى حجبته عنكم فيه حكمة بالغة .

الله سبحانه وتعالى حين يقول « **أتى** » . . فهو يقرر ما هو واقع فعلا . . فأنا لا أستطيع أن أحكم على شىء مستقبلى . . لأننى لا أملك القدرة على التنفيذ . .

بل أنا خاضع لظروف كثيرة تحكمني . . ولكن الله سبحانه وتعالى حينما يقول: « أتى » . . فلا يوجد من يستطيع أن يمنع أمرا لله أن ينفذ . . ولذلك فهو لا محالة واقع . . حدد الله بدايته ونهايته . . وقد يستمر هذا الأمر لحظة . . وقد يستمر ملايين السنين مما نحسبه نحن . . ثم إن الله سبحانه وتعالى قد حدد كل تفاصيله . . وكل شيء يقع فيه . . وبهذا المفهوم نفهم معنى :

« مالك يوم الدين »

على أن الإنسان المؤمن . . حينما يفكر فى يوم الدين . . فإنه يحس براحة نفسية . . لماذا ؟ لأن هذا اليوم . . هو الضمان لكل مؤمن . . امتنع عن حرام الدنيا . . وامتنع عن كل شيء فيه نفع عاجل . . أو مكسب عاجل . . نهى الله عنه . . ذلك انه فى هذه الحالة . . يطمئن إلى انه مادام قد امتنع عن حرام الدنيا فجزاؤه فى الآخرة . . ومادام قد قصد بعمله وجه الله سبحانه وتعالى . . فالله لن يضيع أجره .

ولن يأتى إنسان مهما بلغ فى هذه الدنيا من قوة وقدرة ونفوذ . . ويقول أو يدعى . . انه يستطيع أن يمنع أجر الآخرة عن إنسان أحسن . . أو تصدق . . أو تقرب إلى الله بعمل من الأعمال الصالحة . . ذلك لأن الله سبحانه وتعالى . . هو مالك هذا اليوم دون ما تدخل بشرى على وجه الاطلاق . . ولذلك قال الله سبحانه وتعالى :

« يوم لا تملك نفس لنفس شيئا . والأمر يومئذ لله » .

ولذلك فإن أى عمل صالح . . هو اعداد من المؤمن ليوم الدين . . وهو اعداد لا يخضع لقدرة بشر إلا صاحب الشيء نفسه . . فأنت مهما كانت القوى التى ضدك . . تستطيع أن تمد الاعداد الجيد . . المتقبل من الله ليوم الدين . . وإعداد المؤمن هو اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم . . فقد أهديت شاة لرسول الله من بعض المسلمين فطلب من عائشة أن تتصدق بها على فقراء

المسلمين . . وكانت عائشة رضى الله عنها . . تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم . . يحب لحم الكتف . . فأبقت قطعة لحم الكتف ولم تتصدق بها . . ولما جاءت عائشة سألها رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ماذا صنعت بالشاة قالت تصدقت بها وبقيت كتفها . . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . . بل كلها بقيت إلا كتفها .

الصدقة باقيـة

السيدة عائشة أرادت أن تقول لرسول الله. . ان كتف الشاة هى التى بقيت ولم تتصدق بها . . ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم . . صحح لها المنطق . . وقال لها لقد بقيت الشاة . . أى ما تصدقنا به هو الباقى . . ولكن كتف الشاة التى أبقيتها لنأكلها هى الجزء الذى ضاع لأننا سنأكله ويفنى . . كل الشاة بقيت لنا إلى يوم القيامة جزاء على الصدقة . . لأن ما تتصدق به للآخرة هو الباقى . . وأن ما سنأكله سينتهى . . ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (**يقول الإنسان مالى . . مالى . . وهل لك من مالك إلا ما لبست فأبليت . وأكلت فأفنيت . وتصدقت فأبقيت**) . إذن ما هو الباقى للإنسان من المال ؟ الصدقة وحدها .

والإنسان فى الدنيا . . يعيش قلقا خائفا من زوال النعمة . . فالنعمة إما أن تفارق الإنسان بأن تزول عنه . . أو يفارقها هو بأن يترك الحياة الدنيا . . لذلك تجد أشد الناس حرصا على الدنيا . . ذلك الذى هو فى نعمة يخشى أن يفارقها . . ولكن النعمة فى الآخرة لا تفارق الإنسان أبدا . . إذن فمن الخير لى أن يكون نعيمى فى الآخرة . . حيث لا تفارقنى النعمة أبدا . . بل أعيش مخلدا فيها .

ولقد دخل أحد الأشخاص على رجل صالح . . وقال له أريد أن أعرف . . أأنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟ قال له الرجل الصالح . . إن الله أرحم

بعباده .. من أن يجعل موازينهم فى أيدى أمثالهم .. فميزان كل امرىء فى يد نفسه .. لماذا ؟ لأنك تستطيع أن تغش الناس .. ولكنك لا تستطيع أن تغش نفسك .. ميزانك فى يدك تستطيع أن تدرك أأنت من أهل الدنيا .. أم من أهل الآخرة .. فقال الرجل طالبا من العبد الصالح أن يشرح له كيف ذلك ؟ فرد العبد الصالح .. إذا دخل عليك من يعطيك مالا ودخل عليك من يأخذ منك صدقة فبأيهما تفرح ؟ فسكت الرجل .. وهنا قال العبد الصالح : إذا كنت تفرح بمن يعطيك مالا .. فأنت من أهل الدنيا .. وإن كنت تفرح بمن يأخذ منك صدقة .. فأنت من أهل الآخرة .. لماذا ؟ لأن الإنسان يفرح بمن يقدم له ما يحبه .. فالذى يعطينى مالا .. يعطينى الدنيا .. والذى يأخذ منى صدقة .. يعطينى الآخرة .. فإذا كنت من أهل الآخرة .. فانى أفرح بمن يأخذ منى صدقة .. أكثر من فرحى بمن يعطينى مالا .

ولذلك كان بعض الصالحين .. إذا دخل عليه من يريد منه صدقة .. يقف له .. ويقول مرحبا بمن جاء يحمل زادى إلى الآخرة بغير أجر .. ولذلك فأنا يجب أن أرحب به وأحييه .. لأنه يحمل حسناتى إلى الآخرة .. ولذلك أيضا فإن الكلمة غير الطيبة تفسد الصدقة .. مصداقا لقوله تعالى :

« قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى » .

لماذا قال الله سبحانه وتعالى ذلك .. لأن الذى يتبع الصدقة بالأذى .. ليست وجهته الآخرة .. وليس إيمانه كاملا .. إذ كيف أهين أو أؤذى ذلك الذى جاء يحمل حسناتى إلى الآخرة بغير أجر .. أيأتى إنسان يحمل لى زادى إلى الآخرة فأهينه وأؤذيه .. أيكون هذا إيمانا ؟ أم انى أرحب به وأكرمه .. وأفرح به لأنه سيؤدى لى خير ما فى الدنيا .. وسيؤديه بلا أجر .

ولذلك فإن قول الله سبحانه وتعالى :

« مالك يوم الدين » .

هى قضية ضخمة من قضايا الإيمان .. لأننا ساعة أن نؤمن فنحن مردودون

إلى الله وحده . . وفى هذا اطمئنان للإيمان فى القلوب . . وأنت وحدك الذى تضع الأساس . . أو تملك الميزان ولذلك فلو لم يقل الله سبحانه وتعالى :

« مالك يوم الدين »

جعل الآخرة كالدنيا . . فيها من يستخلف فى الأمور . . لاهتز الإيمان باليوم الآخر . . ولم يكن فيه الحسم . . والقوة . . والقدرة . . ولأصبح القوى فى الدنيا يأخذ كل شهوات الحياة . . ويعطى نفسه ما يشتهى بلا قيود . . بينما ذلك الذى يتبع المنهج . . قد قيد نفسه ولم يحصل على شيء .

« ومالك يوم الدين » . .

معناها ان الابتداء من الله . . والانتهاء إلى الله . . فكأن الحياة تشبه طرف قوس . . تبدأ بخلق الله . . وتنتهى بعودة إلى الله . . ومادام الابتداء من الله . . والانتهاء إلى الله . . لم يبق بين البداية والنهاية إلا ما يرد إلى الله . . أى أن كل عمل فى الدنيا يقصد به وجه الله . . هو الباقى فى هذه الحياة . . وأريد هنا أن نلاحظ شيئا ـ هناك فى اللغة ما يسمونه بضمير الغائب . . إذا قلت : زيد حضر . . فهو موجود معنا وقت الحديث . . هناك غائب . وحاضر . ومتكلم . . وقضايا العقيدة كلها ليس فيها مشاهدة . . فأنت عندما تجلس أمامى وأراك وأتحدث إليك . . لا أقول اننى أؤمن لأنك أمامى وأنا أراك . . ولكن الإيمان يكون بما هو غيب عنى . ولذلك فالله سبحانه وتعالى يتكلم بضمير الغائب . . لأن الله غيب فيقول :

« الحمد لله رب العالمين »

الله غيب . . ورب العالمين غيب . . والإيمان إيمان بالغيب . . ولا توجد عقيدة فى أمر حسى أبدا . . لا أقول مثلا اننى جالس أمامك وأنت تتحدث إلى . . هذه ليست عقيدة . . لأنها أمر حسى لا يدخل فى مقام الاعتقاد . . إذن فـ « الحمد لله » غيب . . « ورب العالمين » غيب . . و« الرحمن الرحيم »

غيب . . و« مالك يوم الدين » غيب . . والقياس هنا على أساس الغيب . . ولابد إذا سرنا على نفس الطريق . . أن يكون السياق اياه نعبد . . ولكن الله سبحانه وتعالى غير السياق . . وجعله حاضرا . . فقال: « إياك نعبد » . . فانتقل الغيب إلى حضور المخاطب . . بعد أن كان علم يقين بالغيب . . أصبح علم يقين . . فلا تقول اياه نعبد ولكن تقول اياك . . فكأنك استحضرت الغيب ربا ورحمانا ورحيما . . واستحضرت « مالك يوم الدين » . . وعندما اختمرت صفات الغيب . . انتقلت إلى محضر الشهود . . وقلت :

« إياك نعبد وإياك نستعين »

ايــاك نعبــد

عندم نرى لفظ اياك . . فالعبارة هنا تفيد الخصوصية . . بمعنى انى قلت لك انى سأقابلك . . فانى قد اقابلك وحدك . . وقد اقابلك مع جمع من الناس . . أو مع آخرين . . فهنا الخصوص أو التصور غير محدد . . ولكننى إذا قلت لك . . اياك سأقابل . . فمعنى ذلك ان المقابلة ستكون خاصة . . واننى سأقابلك أنت بالذات . . ففى هذه الحالة لا يمكن أن تعطف عليها شيئا آخر . . اياك سأقابل . . أى انى سأقابلك أنت . . إذن فاستعمال لفظ « اياك نعبد » . . معناه أن العبادة لله وحده . . فلو قلت نعبدك وحدك . . لا تؤدى نفس معنى إياك نعبد . . لماذا ؟ لأنك قد تقول نعبدك وحدك ومعك كذا وكذا . . ولكن إذا قلت « إياك نعبد » . . وقدمت إياك . . تكون قد حسمت الأمر بأن العبادة لله وحده . . لماذا ؟ لأن العبادة خضوع لله . . بافعل ولا تفعل . . ولذلك جعل الصلاة هى العبادة . . والسجود هو منتهى الخضوع لله . . ذلك إن الإنسان يعرف بأنه مستوى القامة . . ومعناها أن رأسه أعلى وقدميه أسفل ، فعندما يأتى السجود . . تأتى هذه القامة . . أعلاها إلى أسفلها . . وهذا هو منتهى الخضوع . . الرأس يأتى عند موضع القدم .

نأتى بعد ذلك إلى « إياك نعبد » . . أى نخضع لك . . نستعين بك فى كل

الأمور . . ولكن هذا الخضوع يتم غيبا . . هل أمرنى الله سبحانه وتعالى أن اختفى عن الناس جميعا . . فى غرفة مغلقة . . أو فى مكان مظلم عندما أعلن خضوعى له . . لا . . وإنما أمرنى ان أفعل ذلك علنا . . أمام الناس جميعا . . أن أسجد واضع رأسى مكان قدمى . . وأعلن خضوعى وذلتى لله أمام البشر كلهم . . أعلن عبوديتى لله . . وذلك حتى لا أستعلى ولا أستكبر . . والله يريد الناس جميعا عبيدا له وحده . . لذلك يستوى فى العبودية . . وفى اعلان الخضوع لله الغنى والفقير . . والكبير والصغير . . والملك والعبد . . كل هؤلاء يستوون فى الخضوع لله . . وفى اعلان هذا الخضوع .

إذن قوله سبحانه وتعالى: « **اياك نعبد** » . . تنفى العبودية لغير الله . . أى لا نعبد غير الله . . ولذلك لا نعطف عليها أبدا . . ساعة ترى المفعول تقدم « **إياك نعبد** » . . فمعناها حتما . . إننا نعبدك ولا نعبد سواك . . إذن « **إياك نعبد** » . . أعطت التخصيص بالعبادة . . حين يخص الله سبحانه وتعالى نفسه بالعبادة . . وذلك حين نقول الحمد لله . . فإننا نستحضر مستوجبات الحمد . . وهى نعم الله ظاهرة وباطنة . . وحين نقول رب العالمين . . فنحن نستحضر نعم الربوبية من خلق وايجاد من عدم . . إلى كون ملىء بالنعم التى تعطى بلا مقابل . . إلى اخضاع لقوى الكون لخدمة الإنسان . . إلى منهج يحقق لنا السعادة . . وحين نستعرض: « **الرحمن الرحيم** » فإننا نستحضر الرحمة والمغفرة . . ومقابلة الإساءة بالإحسان وفتح باب التوبة . . وكل ما وضعه الله سبحانه وتعالى من رحمة فى هذا الكون وسعت كل شىء . . وحين نستعرض « **مالك يوم الدين** » . . فإننا نستحضر يوم الحساب . . وكيف أن الله سبحانه وتعالى سيجزينا خير الجزاء . . ويعطينا نعيما وجنة وفق ما يريد . . فإذا استعرضنا هذا كله واستحضرناه فهذه نعم الله أعطاها لنا . . فما هو المطلوب منا ؟ المطلوب منا . . « **إياك نعبد** » أى أن نعبد الله وحده . . وكيف نعبد الله . . إذا عرفنا المطلوب منا . . فكيف نمضى فى العبادة ؟

وهنا نتوقف قليلا . . لنضع خاطرا هاما لابد أن نعرضه . . إذا أردت أن

تصنع شيئا .. فإن أمامك طرقا كثيرة .. قد تصنعه مثلا على طريق ما يسمونه طريق الهواة .. أى بلا دراسة ولا دراية .. وإنما بشيء تحاول أن تقلده ولكنك إذا أردت أن تصنع شيئا بإتقان .. فلابد أن يكون هناك منهج تدرسه يحوى أصول هذه الصناعة .. حتى تستطيع أن تنفذها بإتقان .. إذا قال لك ابنك انه يريد أن ينجح فى الامتحان .. ويحقق شيئا جميلا أو معرفة .. تقول له لابد أن تذاكر .. إذن المذاكرة شرط من شروط النجاح .. والكل متفق على أن الشرط سبب وجود الجواب .. فالمذاكرة سبب وجود النجاح .. هذا هو ظاهر العلم .. ولكن باطن العلم غير ذلك .. ذلك أن ظاهر العلم يهمل شيئا هاما .. عناصر حركة الإنسان .. وهو الدافع قبل الواقع .. أنت تقول انك تذاكر لتنجح .. فكأن النجاح وجد فى ذهنى أولا .. بكل ما يحققه لى من مميزات .. ثم بعد ذلك ذاكرت .. ليصبح هذا النجاح حقيقة واقعة .. ومعروف أن الشرط سبب وجود الجواب .. إذن .. لابد أولا أن تؤكد ان الدافع يأتى قبله .

إذن فالدافع موجود قبل المذاكرة .. وبعد المذاكرة جاء الواقع فتحقق ما أردت .. فالسيارة سبب .. وقطع الطريق سبب .. ولكن الدافع أن أصل إلى مكان أحب أن أصل إليه كالاسكندرية مثلا .. فأنا عندما اذهب .. أركب أولا ولكن الدافع يكون فى ذهنى قبل أن أركب .. إذن فالغاية وجدت أولا ثم بعد ذلك جاء الشرط لتحقيق الغاية .. فبعد أن كانت دافعا فى عقلى فقط . صارت واقعا .

الفصل الخامس

إلاَّ .. ليَعبُدونْ

إلا .. ليعبدون

فى كثير من الأحيان نجد الجدل يخرج أشياء كثيرة عن معانيها . . ويدخلها فيها ينفع وما لا ينفع . . الله سبحانه وتعالى . . خلقنا فى الحياة لنعبده . . هذه حقيقة لا يستطيع أحد أن ينكرها . . والله سبحانه وتعالى جعل علة الخلق هى العبادة . . وتم الخلق لتحقق العبادة . . وتصبح واقعا . . ولكن هل العبادة هى مجرد الجلوس فى المساجد والتسبيح . . أم ان لها منهج عمل بينه القرآن . . منه العبادة . . ومنه العمل . . ومنه السعى فى الأرض . . ومنه مقاومة الفتن والاغراءات . . ومنه الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة . . ومنه أشياء كثيرة . . بينها الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم . . ووضحها فى منهج متكامل للحياة . .

لو أن الله سبحانه وتعالى . . أراد منا التسبيح والصلاة فقط وحدهما دون شيء آخر . . ما خلقنا مختارين . . والله سبحانه وتعالى غنى عنا جميعا . . ويستطيع أن يخلق مما يشاء . . كما يشاء . . من يسبحون بحمده . . ولا يعصون له أمرا . . وأن من خلق الله سبحانه وتعالى . . كالملائكة وغيرهم . . من يسبح بحمده ولا يعصى له أمرا . . ومن هو مقهور على عبادته . .

ولو أن هدف الخلق . . هو العبادة بمفهومها الذى يحاول بعض الناس أن يفسره . . ما استطاع خلق من خلق الله أن يشذ عن طاعته . . والله سبحانه وتعالى له صفة القهر . . ومن هنا فهو يستطيع أن يجعل من يشاء مقهورا على عبادته . . لا يستطيع أحد المعصية أو الافلات . . ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى لنبيه . .

« لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين . إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين »

أى أن الله سبحانه وتعالى ليس محتاجا لعبادة القهر . . وليس محتاجا لأن يقهر خلقه ليعبدوه . . فهو غنى عن الجميع . . وعبادة الخلق لله سبحانه وتعالى . .

لن تزيد من ملكه شيئا . . وعصيان خلق الله لله سبحانه وتعالى لن ينقص من ملكه شيئا .

ولكن الله خلقنا لنعبده اختيارا . . لنأتيه ونحن نملك الحرية أن نأتى . . وألا نأتى . . أن نتبع المنهج وألا نتبعه . . يريدنا الله سبحانه وتعالى . . أن نأتى طواعية من أنفسنا . . ونختار أن نكون مقهورين لعبادته . . ونحن نستطيع ألا نكون . . ولكن بارادتنا . . وبحبنا لله سبحانه وتعالى . . يدفعنا هذا الحب أن نقيد ارادتنا التى شاء الله سبحانه وتعالى . . أن يعطيها لنا اختيارا . . أن نقيد هذه الارادة بارادة الله سبحانه وتعالى . . فإذا قال افعل فعلنا . . وإذا قال لا تفعل لم نفعل . . حبا لله وقربا منه . . وجهدا مخلصا فى الوصول إلى رضاه . . هذه هى أعلى المنازل عند الله سبحانه وتعالى . . التى منحها لآدم ولذريته من بعده .

فالذى يأتى الله سبحانه وتعالى مقهورا . . إنما يأتيه وهو غير مختار . . فهو لا يستطيع أن يفعل الا ذلك . . ولكن الذى يأتى الله سبحانه وتعالى اختيارا . . فهو أعلى منزلة . . لأنه يستطيع أن يفعل غير ذلك . . زينت له الشهوات . . وزينت له المعاصى . . والشيطان يغريه . . والدنيا تجذبه . . وبريق كل شىء يحيط به . . ومع ذلك فهو يترك هذا كله بارادته . . يدفعه حبه لله سبحانه وتعالى . . أن يأتى طائعا مختارا . . ليتخلى عما نهى عنه الله . . ويتمسك بما أمره الله به . . تلك عبادة عن محبوبية . . عن حب الله . . عن تمتع بطاعة الله سبحانه وتعالى بالاختيار . . نسبح لله . . نعم . . عن حب . . نعبد الله نعم . . عن قرب وعن رغبة . . نأتى الله سبحانه وتعالى . . لنقول له : يارب أعطيتنا الحرية فى أن نفعل . . أو لا نفعل . . وزين لنا الشيطان الدنيا ونعيمها . . وحفت الطاعة بالمكاره . . ولكننا تركنا الدنيا كلها . . بما تعرضه وما تقدمه . . وجئنا إليك مؤمنين . . إن الحياة التى وضعتها لنا . . هى الحياة السليمة الصحيحة الباقية . . هى النعيم الحقيقى . . أتينا إليك طائعين

مختارين . . لنلتزم بعبادتك . . هذا الالتزام هو حب لك . . أو على الأصح . . حب لما تحب . . وكره لما تكره .

عباد الرحمن

ولذلك يجب علينا أن نفرق . . حينما يقول الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم . . عبادا وعبيدا . . يجب أن نفرق بين هاتين الكلمتين . . ونعرف أنهما ليستا مترادفتين . . ولكن لكل منهما معنى يختلف عن الآخر . . فكل خلق الله عبيد . . لماذا ؟ لأن هناك أمورا قهرية تجرى على هذه الدنيا . . وهناك أشياء كثيرة لا اختيار لى فيها . . أبى وأمى مثلا . . بلدى . . رزقى . . الأحداث التى تقع على . . كل هذا أنا مقهور فيه . . ولذلك حين يريد الله سبحانه وتعالى عبيدا . . فإنه يجرى عليهم صفة القهر . . فلا يستطيعون أن يتحللوا أبدا . . ولكن الله سبحانه وتعالى حين يريد أن يخلق عبادا . . فإنه يخلق أناسا لهم منطقة اختيار . . يستطيع كل واحد فيهم أن يشذ . . وأن يفعل أو لا يفعل . . وأن يطيع أو لا يطيع .

فالذى يتنازل باختياره عن حركة الحياة . . هم عباد الرحمن . . أولئك الذين أعطاهم الله صفة الاختيار . . فى أن يفعلوا أو لا يفعلوا . . ولكنهم تنازلوا عن الاختيار الذى منحه الله لهم . . تنازلوا عنه . . فإن أطاعوا فحبا لله لا قهرا . . وإن هم فعلوا فخشوعا وخضوعا لله . . وليس عن عدم قدرة . . وان هم وحدوا حركة حياتهم مع منهج الحياة الذى رسمه الله سبحانه وتعالى . . فذلك حبا فى الله وتقربا إليه . . هؤلاء الذين يسميهم الله سبحانه وتعالى عبادا .

ولذلك استمع إلى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾

وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾

سورة الفرقان

هؤلاء العباد . . ولم يقل الله سبحانه وتعالى وعبيد الرحمن . . بل قال:« **وعباد الرحمن** » . . لماذا ؟ لأن هؤلاء قهروا أنفسهم على حب الله بمحض ارادتهم واختيارهم . . ودخلوا فى حب الله فالزموا أنفسهم بمنهجه .

والإنسان المقهور على شيء لا يستطيع منه فرارا . . ولا اختيارا . . أقل ثوابا من ذلك الذى يستطيع أن يفعل أو لا يفعل . . ذلك أن الثانى قد ألزم نفسه بشيئين أساسيين . . الشيء الأول أنه كان يستطيع أن يفعل ولم يفعل . . وهذه منزلة عند الله سبحانه وتعالى . . لماذا ؟ لأن العبد ارتفع بعبوديته . . بأن قهر نفسه واختار الله فى وقت كان يستطيع فيه المعصية . . وهذه درجة أعلى فى الحب . . أن تختار الله سبحانه وتعالى طواعية . . وأن تتوجه إليه راجيا متوسلا أن يقبلك . . فى هذه الحالة يكون حب الله فى قلبك قد زاد . . وتكون منزلتك عنده قد ازدادت أيضا . . هذه واحدة .

الحقيقة الثانية : ان الإنسان قد التزم بالتكليف . . وألزم نفسه بمنهج الله . . فدخل فى عقد إيمانى مع الله سبحانه وتعالى . . مع أنه يستطيع أن يفعل غير ذلك . . وإذا رجعنا إلى القرآن الكريم . . نجد أن الله سبحانه وتعالى فى التكليف لا يخاطب الناس جميعا . . وإنما يسبق أحكام التكليف دائما بكلمة :

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام »
« يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة »
« يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم »

« يا أيها الذين آمنوا لا تحرِّموا طيبات ما أَحَلَّ الله لكم »

.. أى أن الله سبحانه وتعالى .. لا يكلف إلا المؤمن .. الذى يدخل فى عقد إيمانى مع الله سبحانه وتعالى .. الذى يقول يارب آمنت بك ربا .. وبالإسلام دينا .. وأريد يارب أن أتبع هداك .. وأن أمضى فى صراطك المستقيم .. ويتم ذلك بالإرادة الحرة .. دون ما تدخل .. حين يأتى العبد إلى الله سبحانه وتعالى .. معلنا إيمانه .. ملزما نفسه بما يريد أن يتبعه .. حينئذ يكون قد دخل فى عقد إيمانى مع الله سبحانه وتعالى .. ويكون ملتزما بمحض اختياره أن يتبع منهج الله .. فيخاطب الله بالمنهج .. ويبلغه بالتكليف .. أما ذلك الكافر .. الذى لا يلتزم بشىء .. ولا يؤمن بشىء .. فهو لا يدخل فى هذا التكليف الإيمانى .. بين الله والعبد المؤمن .. وهو غير مخاطب بالتكليف .

إذن فالإنسان إذا دخل طريق العبادة .. طريق الإيمان .. فإنما يفعل ذلك باختياره .. فاذا التزم .. أصبح من عباد الله .. الذين يكلفهم الله ويطيعونه .. ويلتزمون بمنهجه .. وهكذا تكون العبادة بالنسبة للإنسان من شقين الأول .. أن يؤمن طواعية واختيارا .. والشق الثانى .. أن يلتزم طواعية واختيارا أيضا .. فإذا قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ ﴾

سورة الزمر

نعرف أن غفران الذنوب جميعا .. لأولئك الذين اختاروا منهج الله .. وارتقوا من منزلة العبيد إلى منزلة العباد .

قلوب تخشع

فالذى يأتيك طائعا مختاراً . . يأتيك بالحب وهو قادر على ألا يأتيك . . هؤلاء هم العباد . . وحين يريد الله سبحانه وتعالى . . حين يقول:« **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** » . . هل معنى ذلك أنه يريدهم عبيدا أو عبادا . . يريدهم عبادا . . أى يريدهم أن يتنازلوا باختيارهم . . وحبهم لله . . عن كل ما يغضب الله . . وأن يتبعوا باختيارهم وحبهم لله ما يرضيه . . ولو أراد الله غير ذلك ما استطاع واحد منا أن يكفر .

ولذلك قال ابليس: « **إلا عبادك منهم المخلَصين** » . . أى ذلك الذى اختار طريقك يارب . . أو هؤلاء الذين اختاروا طريقك . . واختاروه بحب . . ومشوا فيه بإخلاص . . وتنازلوا عن اختيارهم حبا لك . . هؤلاء لا يستطيع إبليس أن يغويهم أبدا . . لماذا ؟ لأنه يعلم أن الله يرعاهم . . ويدافع عنهم . . ويحيط بهم أينما كانوا . . وأن سياج عناية الله يمنع إبليس من الاقتراب منهم . . هؤلاء هم العباد المخلصون . . ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى : « **لا إكراه فى الدين** » . . فالله لا يريد قوالب تخضع . . ولكنه يريد قلوبا تخشع بالحب . . لأن اخضاع القالب . . يمكن أن يأتى بالرغم منك . . فإذا أمسك إنسان كرباجا . . وقال لك افعل كذا وقلت لا . . فيضربك بقوة . . ويؤلمك الضرب . . خضع قالبك . . أى خضع الظاهر منك وقمت تفعل له ما يريد . . ولكن هل تفعل هذا بحب ؟ هل تفعل هذا بشوق ؟ هل تفعل هذا عن رغبة ؟ لا ، أنت تفعل وأنت مكره . . الله سبحانه وتعالى وهو قادر على هذا . . لا يريد أن يُكرِهك . . ولكنه يريد قلوبا تخشع . . أى يريدك أن تخشع من داخل قلبك . . والقلب هو المنطقة الحرة التى خلقها الله فى الإنسان . . ولا تستطيع قوة فى الأرض . . أن تجعلها مقهورة على شىء . . فما فى قلبك هو ملك خاص لك . . ليس للعالم كله سلطان عليك . . وقد يكرهك إنسان فتتظاهر له بالحب . . ولكن قلبك يظل يكرهه ويرفضه . . وقد تتظاهر لإنسان بالخضوع . . ولكن قلبك يمقته . . وفى نفس الوقت مهما فعلوا فيك . . ولو

وضعوك فى سجن تعذب فيه ليل نهار .. ولو قطعوا جسدك .. فإنهم لن يستطيعوا أن يكرهوا قلبك على حب شيء تكرهه .. أو كره شيء تحبه .. بل تبقى هذه المنطقة حرة لا يتدخل فيها إنسان .. ولا يستطيع إنسان أن يتدخل فيها .. ولذلك قال الله سبحانه وتعالى :

« الا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان »

لماذا ؟

لأن الاكراه فى هذه الحالة .. يكون اكراها للقالب .. وليس للقلب .. والله سبحانه وتعالى كما قلنا .. لا يريد قوالب تخضع .. ولكنه يريد قلوبا تخشع .. ولذلك مادام القلب خاشعا .. فالله راض .. حتى ولو أجبر القالب على غير ذلك .. ولذلك فقد أسقط الحساب عن كل من أكره قالبه على شيء وقلبه يرفضه .. فأنت إذا أمسكت عصا غليظة .. وأجبرت إنسانا على الصلاة .. وقلبه لا يريد الصلاة ويرفضها .. فلا صلاة له .. وأنت ان أكرهت إنسانا على فعل منكر .. وقلبه يرفضه .. فلا حساب عليه .. فالله يسقط عنه الحساب .. ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

« إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين » .

إنه يقول لرسوله ونبيه الكريم .. أنا لا أريد أعناقا تخضع بالقهر .. لأننى لو أردت ذلك فما أسهل أن أفعله .. أنا لا أريد إكراها .. إنما أريد « **عبادة** » .. تأتى بالحب لى .. وليس بالإكراه على عمل أريده .

فالله سبحانه وتعالى حين يقول :

« وما خلقتُ الجن والإنس إلا ليعبدون » .

فالمهمة هنا أن يكونوا عبادا لا عبيدا .. وأن يأتوا لله سبحانه وتعالى عن محبوبية وخضوع .. ولو أتوا عن غير ذلك ما حققوا مهمتهم فى الحياة .. وأن يأتوا عن حب فى كل ما يعملون .. إذا عبدوا فعبادتهم عن حب .. وإذا

حكموا فحكمهم عن حب فى ارضاء الله .. وإذا باعوا وإذا اشتروا .. فكل ذلك فى إطار حب إرضاء الله .. فى كل أمر من أمور الدنيا .. لا يشغلهم إلا ذلك الحب .. فكل عمل يقومون به .. يبتغون به رضاء الله .. ويسألون أين الرضا فيتبعونه ... فلا يغش أحدهم فى بيع .. ولا يزور فى قول .. ولا يزيف شهادة .. وهكذا .

ومادام الله سبحانه وتعالى قد خلقنا مختارين .. فكل ما نعمله فيه اختبار لنا .. وفيه اختيار لنا .. ويكون عن رضا .. وعن نية .. وعن رغبة .. وعن غاية .. فالذى يسرق .. يختار أن يسرق .. والذى يفعل ما يغضب الله .. فهو يختار ذلك .. وهو فى اختياره هذا .. قد خرج عن طريق الحياة الذى رسمه الله سبحانه وتعالى له .. فهو لم يأخذ شيئا .. ولن يأخذ شيئا .

حقيقة الحياة كلها إنها اختبار فى العبادة .. يمر به الإنسان .. اختبار لما يمكن أن يفعل ولا يفعل .. فالمال مال الله .. لا يملكه أحد .. والأرض أرض الله .. لن يحتفظ بها أحد .. الإنسان يأتى ويخرج .. وكما جاء يخرج .. فيما عدا عمله .. وحسناته وطيب الذكر والعبادة .

الرحلة كلها من المهد إلى اللحد .. رحلة إيمان .. وفى مفهومها الواسع اختبار لحب الله فى القلب وعبادة الله فى الأرض عن اختيار حر .. ومهما فلسفنا الأمور .. أو وضعنا للدنيا موازين ومقاييس .. فإننا نأتى فى النهاية .. إلى انها رحلة إيمانية لاختبار حب الله فى النفس .. دون أى شىء آخر .. وإذا كانت أشياء قد وضعت فى الأرض لتحث الإنسان على العمل أو على الزرع وتعهده .. وكل ما نراه .. فهذه كلها أسباب ومسببات .. وضعها الله سبحانه وتعالى .. لتمضى الحياة فى الكون ..

وإذا كان هناك مغريات قد وضعت فتلك اختبارات الإيمان .. أما من يقول

انه يملك .. أو انه يستطيع كذا وكذا .. أو أنه يفعل كذا وكذا .. فكل ذلك في مبناه الحقيقي مجاز .. لا علاقة له بجوهر الأشياء .. فأنا أملك مجازا مادمت حيا .. فإذا مت .. فلا أملك شيئا ولو كنت ملكا للدنيا كلها .. وأنا أحكم مجازا وأقضي .. فإذا انقضت أسباب الحكم التي مكنني الله بها .. فلا أستطيع أن أقضي ولا على فرد واحد ..

رحلة الحياة هي اختبار إيماني في العبادة .. قد جعله الله اختيارا للبشر .. ليفضلهم على سائر مخلوقاته ويجزيهم عليه جزاء كبيرا .. فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد قال عن الإنسان « **إني جاعل في الأرض خليفة** » .. تلك الخلافة هي ذلك الاختبار الإيماني الذي يمر به كل إنسان .

الوجود .. والايجاد

العلة في الخلق هي رسول الله صلى الله عليه وسلم .. العلة في الوجود والايجاد .. هي تحقيق العبادية المثلى لله سبحانه وتعالى .. من الذي حقق ذلك .. من الذي قال فيه الله سبحانه وتعالى :

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾

سورة المائدة

من الذي جاء على يديه كمال الدين .. وتمام النعمة .. انه رسول الله صلى الله عليه وسلم .. تتمثل فيه أفضل درجات الرضا من الله سبحانه وتعالى .. وآخر درجات الاتمام للعبادية .. التي أرادها الله من خلق الإنسان على الأرض .. عبادية عن محبوبية وعشق لله .. عبادية عن دخول طاعة الله سبحانه وتعالى طوعا واختيارا .. عبادية بالالتزام بما أنزل الله التزاما كاملا .. والبعد عما

نهى عنه بعدا كاملا .. هذه هى العبادية المثلى .

الله سبحانه وتعالى أرسل محمدا .. ليكون مثلا أعلى للبشرية كلها .. يحتذى به أولئك الذين يريدون أن يعبدوا الله عبادة حرية واختيار .. وحب وإيمان .. وقرب من الله سبحانه وتعالى .. فإذا عرفت هذا كله .. فلابد أن يتسع عقلك وفطنتك لمنزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ربه .. وقربه منه .. وحبه له .

ولكن لكى نعرف هذا كله .. بما يحمله من عمق للبشرية .. فلابد أن نعرف معنى قوله تعالى « **اياك نعبد** » .. ومادام الأساس فى البشرية كلها هو العبادة فلنبدأ بمعنى « **اياك نعبد** » ..

ولنبدأ خطوة خطوة .. « **إياك نعبد** » .. أى لا نعبد سواك .. نعبدك وحدك ، وهذا معناه الخضوع لله سبحانه وتعالى الواحد الأحد .. والله سبحانه وتعالى الذى نخضع له .. خضوعنا له هو قمة الشرف لنا .. فالله سبحانه وتعالى بعلاه وقدراته وقوته .. وكل صفاته .. هو قمة تجعل الخضوع له تشريفا .. فأنت لا تخضع لمساو لك .. ولا لمن فوقك درجة .. ولا لمن فوقك درجات .. بل تخضع لخالق الكون كله .. ومهما تعددت القوى التى تفوقك .. فإن لكل قوة فى الكون قدرة لا تتجاوزها .. ولكن الله سبحانه وتعالى فوق كل قدرة .

والأصل فى الحياة أن يخضع الأدنى للأعلى .. ولو كان هذا هو الكون .. لتكرر خضوع بعضنا لبعض .. ولكن الله سبحانه وتعالى .. حررنا من هذه العبودية بأن جعلنا لا نخضع لسواه .. ولو درسنا العقل البشرى عبر التاريخ .. لوجدناه قد خضع وعبد الشمس .. وعبدالريح .. وعبدالحيوانات المفترسة .. وعبد الأحجار والأصنام .. أشياء كان يخشاها .. وأخرى كان يعتقد أنها تحميه من الأذى وتنصره على أعدائه .. وأخرى صور له عقله أنها

تقربه من الله سبحانه وتعالى . . وكان فى كل خضوعياته يخرج من عبودية إلى عبودية . . فهو مرة يعبد الها فيجد انه لا ينصره فيتجه إلى اله آخر . . فلا يجد له حولا ولا قوة . . فيمضى إلى إله ثالث ورابع . . ويظل حائرا ينتقل من عبودية إلى أخرى . . يصور له جهله أشياء . . ويصور له خوفه أشياء . . فخضع الإنسان للإنسان . . وخضع للحيوان . . وخضع للجماد . . وفى كل خضوعه كان يعطى ولا يأخذ . . يعطى القرابين . . ويعطى الذهب والفضة للمعابد . . ولا يأخذ شيئا . . فإذا بالله سبحانه وتعالى يأتى ويقول . . « **وتوكل على الحى الذى لا يموت** » فيحررنا من كل هذه العبوديات .

فأنت تجد حاكما تخضع له . . ثم يذهب هذا الحاكم ويضيع خضوعك . . وتجد نفسك بلا نصير . . ولكن الله سبحانه وتعالى يزيل عنك هذه العبودية . . أنت تخضع لرجل ذى مال . . ثم يأتى ليفلس . . وتجد نفسك لا شىء . . ولكن الله سبحانه وتعالى يزيل عنك هذه العبودية . . أنت تخضع لإنسان لأنه يملك شيئا ولكنه يتخلى عنك ـ وبدلا من أن يعطيك ما تريد . . يعطيك الخوف والفقر . . أنت تعبد مالا أقتنيته أو ذهبا أخذته . . أو قوة جعلتك تتفوق على غيرك أو سلاحا تملكه ولا يملكه آخر . . هذه هى عبادات الدنيا . . ثم يذهب هذا المال أو تضيع هذه القوة . . أو يأتى إنسان بسلاح جديد يهزمك . . المهم أن الله سبحانه وتعالى يريد أن ينجيك من كل هذا . . يريد أن ينصحك يقول لك « **توكل على الحى الذى لا يموت** » . . فإذا طلبته وجدته . . فهو القوى وقوته أزلية . . وهو القادر وقدرته لا تزول . . وهو المتحكم وحكمه لا ينتهى وعرشه قائم حتى قيام الساعة . . كلمته هى النافذة فى كل وقت . . وفى كل عصر . . وفى كل زمان . . هو الله وحده لا ينازعه ولا يستطيع أن يصل إلى ملكه أحد . . هو الباقى حين يزول الجميع . . وهو القوى حين يضعف كل شىء . . وهو القادر حين تزول القدرة على الدنيا كلها . . وهو الذى يستطيع أن يبدل العسر يسرا . . والظلام نورا . . والضيق فرجا . . ولا يطلب لذلك كله ثمنا ولا جزاء . . إلا أن تقول : « **إياك نعبد** » . . فكيف تترك الله وتعتمد على

سواه .. وكيف لا تتوكل على الحى الذى لا يموت .

لو حكمت عقلك دقيقة .. لوجدت أن كل ما دون الله هو سراب وأوهام .. وشيء ضائع وزائل .. ولكن الباقى هو الله .. فإذا كان الله سبحانه وتعالى يطالبك أن تتوكل عليه .. أى إذا قصدت حاجة فقل:اللهم أعنى .. وإذا أردت عملا فارفع يدك إلى السماء وقل:اللهم يسر لى .. وإذا كان هناك ما يؤرقك فقل:اللهم اذهب عنى هذا .. وإذا كنت تواجه شيئا عسيرا فاطلب العون من الله سبحانه وتعالى .. وتوكل على الحى الذى لا يموت .

اياك نعبـــد

إذا قلنا « **إياك نعبد** » .. فاننا نعتز ولا نذل .. لماذا ؟ لأن ذل الدنيا كلها لا يستطيع أن يدخل إلى قلوبنا .. فإذا هددنا قوى ونحن ضعفاء فلن تصيبنا ذلة .. لأن الله سبحانه وتعالى معنا .. وإذا واجهتنا أى مصاعب أو متاعب .. فلا يجعلنا هذا نعيش فى ذل لأن وكيلنا هو الله سبحانه وتعالى .

نحن نصبح فى الصباح وصدورنا مملوءة بالعزة .. ورءوسنا مرفوعة للسماء .. لماذا ؟ لأننا توكلنا على الله سبحانه وتعالى .. وكل ما فى الكون خاضع لله .. فلا قوى يستطيع أن يدعى قوة فوق قوة الله .. ولا عزيز يجرؤ أن يقول إلا انه ذليل لله سبحانه وتعالى .. لذلك فإن الإنسان الذى لا يعتمد على الحى الذى لا يموت يعيش فى ذل الدنيا .. وفى عبودية هذا الذل .. فهو يصبح خائفا أن يفقد عمله .. أو يفقد ماله .. وهو حين يتكلم أو يتصرف .. خائف أن يغضب رئيسه عليه أو يغضب صاحب العمل . وهو فى خوف دائم من كل من هو أعلى منه .. وهذا الخوف يدفعه إلى حياة بائسة بغيضة .

ولكن ذلك المعتز بالله سبحانه وتعالى .. لا يهمه إلا أن يرضى الله وحده .. والذل لله عز .. والذل لغير الله بؤس وشقاء وهوان .. ذلك أن الله سبحانه

وتعالى يريد لى الخير . . ولا يريد لى الشر . . فهو يعطينى . . وهو يرحمنى . . وهو لا ينظر إلى ما فى يدى . . وهو مادمت أحبه فإنه يمنحنى من نعمه فوق ما أريد . . ولكن الإنسان يريد أن يأخذ ولا يعطى . . وأن يسلب الحق . . وأن يفعل كل ما تكرهه النفس .

عندما نقول « إياك نعبد » . . فإن عبوديتنا لله تعطينا الخير من الله . . والله سبحانه وتعالى قد أعطانا العزة فى هذه العبودية فى أشياء كثيرة . . فالله سبحانه وتعالى قد جعلنا جميعا متساوين أمامه . . ليزيل عنا ذل الدنيا . . وجعل لنا عبادته تذكرة لذلك . . وجعل لنا فى يوم الجمعة موعدا . . فرضه علينا ليذكرنا بالحقيقة التى ننساها أحيانا وهى عزة العبادية . . فنحن أمام الله جميعا متساوون فى كل شىء . . الحاكم عبد . . والمحكوم عبد . . أكثر الناس عزا وجاها . . يدخل المسجد حافى القدمين . . ويجلس على الأرض . . وأقل الناس يدخل المسجد بنفس الطريقة . . ويجلس بنفس الطريقة . . لماذا ؟ حتى يذكرنا الله سبحانه وتعالى . . أن مناصب الدنيا لا قيمة لها عنده . . وأن منازل الدنيا ليس معناها رضى من الله . . فنغتر وتأخذنا العزة بالاثم . . ونحسب أن عطاء الله فى الدنيا هو عطاؤه فى الآخرة .

أبدا فهذا غير صحيح . . يأتى الإنسان فى الدنيا فيعطيه الله الجاه والمنصب والمال . . فيغتر . . ويعتز . . ويأمر وينهى . . ويمضى يمينا ويسارا . . يحسب انه فى منعة . . ثم تأتى صلاة الجمعة . . فيذهب هو وأقل الناس شأنا عنده . . يجلسان معا على الأرض متساويين . . وربما كان أقل الناس فى الصف الأول . . وهو فى الصف الأخير . . ويركعان معا . . ويسجدان معا . . لا فرق ولا منازل دنيوية هنا . . لماذا ؟ حتى لا ينسيه غروره وما هو فيه من عز . حتى لا ينسيه هذا ان الله سبحانه وتعالى يريد عبادا . . وان العباد هم الذين يأتونه طائعين مختارين . . وانه إذا كان الله قد أعطاه فى الدنيا . . فليس هذا استثناء بالدخول إلى الآخرة فى منزلة أكبر أو أعلى . . فإذا تذكر ذلك وخرج من المسجد . .

ووقف أمامه رجل فقير ضعيف . . فلا تجعله عزة الدنيا يفترى على هذا الرجل . . بل يتذكر انه عندما كان فى المسجد . . كان هذا الضعيف المسكين فى الصف الأول . . وهو فى الصف الأخير . . فإذا تذكر ذلك . . تذكر الله وقوته . . وأحس ان هذا الشخص قد يكون أقرب منه إلى الله . . فلا يظلم . . ولا يغتر .

والعجيب أن بعض الناس يأتى إلى المسجد قبل الصلاة بدقائق . . ثم يتخطى الرقاب حتى يصل إلى الصف الأول . . ويظل يزاحم . . ويضايق فى المصلين حتى يجد مكانا له مصداقا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ ما معناه ـ إن الرحمات تتنزل على الصف الأول فالذى يليه فالذى يليه . . نقول لهذا الشخص : من تخدع . . ؟ . . ليس معنى أن الرحمات تتنزل على الصف الأول . . انك تأتى فى اللحظة الأخيرة . . ثم تحشر نفسك فى الصف الأول معتقدا انك تخدع الله سبحانه وتعالى . . ان الملائكة يقفون على أبواب المساجد يوم الجمعة . . فيقيدون فى صحائفهم الداخلين . . الأول فالأول . . حسب دخولهم إلى المسجد . . حتى يصعد الخطيب إلى المنبر . . فإذا وصلت قبل الصلاة بدقائق فالزم مكانك . . ولا تحاول أن تخدع الله سبحانك وتعالى . . لأنك لن تستطيع أن تخدعه . . ولا تتخط الرقاب . . واعلم أن هذا هو بيت الله . . لا فضل فيه لأحد إلا لمن دخله أولا . . وإياك أن تتحدث فى أمور الدنيا داخل المسجد . . فالله لا يبارك فى حديث الدنيا داخل بيته .

على باب المسجد . . كما تخلع نعليك . . تخلع الدنيا كلها . . فأنت هنا مهما كان جاهك وسلطانك . . من عباد الله . . الدنيا خارج المسجد . . أما فى داخله فعبادة الله وحده . . والله خلقنا متساوين . . أكرمنا هو أتقانا . . ولم يخلقنا مميزين بسبب درجات الدنيا . . التى وجدت لتسير الحياة فى الأرض . . فإذا أردت أن تعبد الله فاخلع الدنيا من نعليك قبل أن تدخل المسجد . . فإذا قضيت الصلاة . . وخرجت من المسجد فباشر أمور دنياك .

رقم الايداع ٣٣٢٥ / ٩٣
I. S. B. N
977 – 08 – 0178 – X

طبعت بمطابع دار أخبار اليوم

أوائل الدعوة . . فقد قاوم الكفار الاسلام مقاومة عنيفة . . لأنه يساوى بين السيد والعبد أمام الله . . ولذلك فقول الله سبحانه وتعالى: « **إياك نعبد** » . . ومساواته بين خلقه ـ تلك المساواة المطلقة . . التى لا تعترف بفروق الدنيا.. ستجد بلاشك من يحاربها ويقف أمامها . . وسيكون هؤلاء المحاربون الذين يتصدون لمنهج الله سبحانه وتعالى . . هم السادة أو الأقوياء . . الذين يرفضون هذه المساواة . . ويريدون بقاء السيادة لهم . . كما يريدون بقاء مجتمع السادة والعبيد . . ويحاربون الدين الجديد التى يساوى بين السيد والعبد .

والذين سيتمسكون بالعبادة وبمنهج العبادة . . الذى هو فيه هذه المساواة الكاملة . . والذى فيه نصرة الضعيف على القوى . . والمظلوم على الظالم . . الذين سيتمسكون بالعبادة وبمنهج العبادة . . الذى هو فيه هذه المساواة الكاملة . . والذى فيه نصرة الضعيف على القوى . . والمظلوم على الظالم . . الذين سيتمسكون بهذا المنهج هم الضعفاء . . لماذا ؟ . . لأن ضعفهم نشأ من اغتيال كسبهم وحقوقهم من الأغنياء ، إذن فهناك إنسان قوى لا يريد منهم « **إياك نعبد** » . . ولكن يريد كل شيء له . . يريد أن يتميز على الناس جميعا . . وإنسان ضعيف يتمسك بمنهج « **إياك نعبد** » . . لأنه يعيد إلى الضعفاء حقوقهم .

إذن ساعة نقول « إياك نعبد» سيتأبى عليك الذى يحبون أن يعبدوا من الناس . . وهم الأقوياء . . ومادام ذلك سيحدث . . فسندخل أول الأمر فى صراع . . جانب منه ضعفاء متمسكون بدين الله . . وجانب منه أقوى يرفضون هذا الدين . . يريد الله سبحانه وتعالى هنا أن يثبت الذين آمنوا . . فيقول لك لا تخف من هذاالصراع . . ولا تحس بالرعب أو الفزع من أولئك الذين يملكون الأسباب فى الدنيا . . أسباب الحياة والسلطان والقوة . . الذين يريدون أن يُعبَدوا من الناس . . ذلك لأنه إذا عجزت الأسباب . . فهناك الله سبحانه وتعالى . . وهو يستطيع أن يحميك . . فاطلب المعونة من الله . . استعن بالله

إذن عبادة الله عزة . . لأنها تذكرنى بأننى متساو أمام الله . . مع أكبر خلقه فى الدنيا وأعلاها شأنا . . وأننى أنا وهو نصلى معا . . ونركع معا . . ونسجد معا . . ولا تسرى علينا إلا قوانين الله سبحانه وتعالى . . هذه واحدة . . والنقطة الثانية أننى عبد الله الذى لا يتركنى أبدا . . إذا أردت أن أقف بين يديه . . اتجهت إلى القبلة . . وصحت الله أكبر . . وإذا أردت أن أدعوه . . صحت يارب . . فقال ماذا تريد يا عبدى . . ؟ . . والعظيم من عظماء الدنيا إذا أردت منه شيئا فإنك تطلب أن تقابله . . وعليك أن تقابل أولا من هم أدنى منه . . ليسألوك لماذا تريد أن تقابله . . وفيم تريد أن تتكلم . . فإذا قلت لهم وأوضحت الغرض من المقابلة . . تركوك أياما وأسابيع . . وربما أشهرا وأنت تنتظر . . وقد يقولون لا . . وقد يقولون نعم . . فإذا قالوا نعم حددوا لك الزمان والمكان . . ثم بعد ذلك ذهبت قبل الموعد بنصف ساعة أو ساعة . . وجلست منتظرا . . فإذا تمت المقابلة بعد هذا كله . . وأردت أن تشرح له ما جئت من أجله . . قد لا يستمع إليك . . ويقوم واقفا لينهى المناقشة .

أنظر إلى هذا كله . . ثم أنظر إلى عبوديتك لله سبحانه وتعالى . . أنت الذى تحدد الزمان . . وأنت الذى تحدد المكان . . فالله سبحانه وتعالى موجود دائما . . لتدعوه عندما تريد . . وإينما كنت تستطيع أن تتجه إلى السماء وتصيح يارب .. فتجد الله مستمعا إليك . . وأنت الذى تحدد الوقت . . والله سبحانه وتعالى لا يمل حتى تمل أنت . . فلو ظللت طول الليل تناجى وتدعو ، فالله معك يستمع إليك . . حتى تمل أنت وتتوقف عن الدعاء . . إذن فحسب نفسى عزا أننى عبد الله . . يحتفى بى بلا مواعيد . . ويعزنى ويقول يا عبدى أنت تلقانى متى تريد . . وفى أى مكان تريد . . أهذه عبودية أم عزة . . وهل توجد عزة أكثر من هذا ؟ .

المساواة فى العبادة

ولقد كان مبدأ المساواة فى العبادة . . من المبادىء التى قاومها غير المسلمين فى

محتويات الكتاب

سبحانه وتعالى .. وقل « **وإياك نستعين** » ..

ومادمت ستخص الله وحده بالعبادة ، فإن هذا التخصيص سينشأ عنه صراع بين حق وباطل .. وقد يكون هذا الصراع الباطل .. قوة ظاهرة فى الدنيا .. ولكن الحق له قوة تفوق قوة الباطل .. ولذلك تأتى:« **إياك نعبد** » أولا .. ويعلم الله سبحانه وتعالى أن صراعا سينشأ بين أقوياء وضعفاء فى الدنيا .. فيقول : قل:« **وإياك نستعين** » .. فلا يدخل الخوف إلى قلبك من هؤلاء .. وتذكر إنك تستعين بالله سبحانه وتعالى .

وكلمة « **وإياك تستعين** » هذه .. هى دستور فى حياة الإنسان المؤمن .. لأنك حين تقول استعان فلان بفلان .. لا يمكن أن يكون لذلك معنى غير معناها وهو طلب المعونة .. وطلب المعونة معناه أنه استنفد الأسباب التى عنده فى أن يقوم بالعمل .. فلما عجز استعان بغيره .. فأنا أريد أن أحمل حملا معينا .. فلا أستطيع لأن الحمل ثقيل .. وهنا ألجأ إلى غيرى .. وأطلب منه أن يقدم لى المعونة . حتى أستطيع أن أنقل هذا الحمل الثقيل من مكان إلى آخر .

إذن « **وإياك نستعين** » .. معناها أنه فرغت أسبابنا كبشر .. لأن الخصم الذى أمامنا أقوى منا .. فنحن نقول:انه فرغت أسبابنا يارب .. لأن الباطل أمامنا قوى .. وهنا يقول الله سبحانه وتعالى : لا يمكن أن تخصنى أنت بالعبادة .. وأتخلى عنك .. بل أنا أعينك وأنصرك .. وهنا نحن نستعين بقدرة الله أمام باطل قوى .. ولكن يجب أن تنفد أسبابنا أولا .

ثم بعد ذلك يقول الحق تبارك وتعالى : « **إهدنا الصراط المستقيم** » .. **هنا نحن نطلب الهداية من الله سبحانه وتعالى إلى الطريق الذى ارتضاه لعباده .. وحين يطلب الإنسان العابد الهداية من ربه .. يكون ذلك معناه أنه ارتضى الله سبحانه وتعالى مكلفا ومشرعا .. وقال : يارب لقد آمنت .. يارب سأعبدك وحدك وأستعين بك .. فاهدنى الصراط المستقيم وأرنى الطريق الذى يوصلنى إليك .**

والله ولى التوفيق